



أعمال شوقي

الشكايا والانسكان



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

شوق وعالمه الشعري

المنظر الأول :

صالة محاضرات في إحدى كليات الآداب بالجامعة ، الصالة ممتلئة بالوافدين ، وهم في شوق لوصول المحاضر ، الذي عودهم الطريف في كل ما يعالجه من مواضيع ، ومحاضر فيه من دراسات .

زميل لزميله : إن اختيار موضوع المحاضرة ، وتركيزه على الناحية الإنسانية في شعر شوقي ، يدل على اتساع في التفكير ، وعلى نظرة شمولية في الدراسة ، وعلى طرق سبيل فيها جدة وطرافة وتنوع ، فإن أقلاماً كثيرة تناولت شوقي في سيرته الذاتية ، كما تناولت تقييم شعره وفقاً للمقاييس المعهودة ، أما أن يتناول جانب إنسانيته ، فهذه هي الناحية التي ينشط فيها عامل الجذب وشدة الانتباه .

الزميل المستمع : في الواقع ، هذا الأمر جدير بالملاحظة والمتابعة ، وإنك ترى في إقبال الوافدين ، الدليل على صحة ما عرضت ، وصدق ما أحسست ، وأنا من جانبي أضيف إلى ما قلته ، أن جوانب شاعر كشوقي تحمل

المتخصصين ، على مثل هذه الدراسة ، ومنها تعددت الدراسات فلكل باحث نظرة جديدة .. وهذا ما حدث بالنسبة لأبي العلاء المعري ، أو المتنبي ، أو برنارد شو ، أو جان جاك روسو ، عندما تنوعت أساليب دراسة كل شخصية من هذه الشخصيات ، على يد كتاب ونقاد ، مختلفي الاتجاهات والأساليب . ذلك أن لكل فنان أو رسام ، من موقعه الذى يرسم منه ، أسلوبه الخاص ، وما يمد به من خيال ومحتوى ومضمون ، لا يراه غيره . كالموديل الذى تمثله أنثى ، يتخلق الفنانون حولها ، حيث يصورها كل منهم بما توحى له به روحها التى تسكن جسدها ، ونظرتة هو ، إلى ما بداخلها ، لا إلى ما هو ظاهر من بدنها ، فإن عالم البصر ، يحجب الكثير من عالم البصيرة .

وليس للفن نهاية أو كلمة أخيرة ، فالإنسان منذ بدأ يتدرج فى رقيه ، ازداد الفن معه فى إضافات مستمرة على مسيرة الحياة ، وللشاعر الكبير مفاتيح عديدة لشخصيته ، تستطيع أن تدلف عن طريقها إلى دخيلة نفس الشاعر وما يطوى عليه الجوانح ، وسرى مما سوف نسمعه من المحاضر . إيضاحاً لما نحن فيه من جدل .

الزميل الأول : أرى آلات التصوير أخذت تصور الصالة والوافدين ، للنشر عن المحاضرة بأوضح وسائل النشر ، وكنت أتمنى أن يتم تسجيلها لتلفزيونيا ، لتعم الفائدة للمشاهدين كما ستم بالنسبة للمستمعين .

الزميل الثانى : ها هى ذى آلات وكاميرات التلفزيون قد وصلت ، وكأنك كنت تقرأ صفحة الغيب .

* * *

يدخل المحاضر ، ويحيى جمهور الوافدين ، في تواضع ، ويأخذ مقعده ،
أمام القائم الذى يحمل مصباحاً ، وعلى سطحه وضع المحاضر أوراقه التى أخذ فى
إلقاء نظرة عجلية للاطمئنان إلى ترتيب فصولها التى دونها .

سكوت تام يعقبه صوت المحاضر :
سيداتى ، آتساتى ، سادتى : حديثنا اليوم عن أمير الشعراء أحمد شوقى
الشاعر الإنسان ، ولست أمانع فى أن يسألنى من يريد عما يشاء ، وسوف أجب
عن سؤاله بما يوضح ويكشف له عما يستعلم إن استطعت إلى ذلك سبيلاً ، على
أن يكون السؤال فى إطار موضوع المحاضرة التى سوف يتشعب فيها مجال القول ،
فى نواح عديدة ، أرجو أن تحقق رغباتكم .

وقد يقول قائل ، إنه ما دام شوقى شاعراً ، فهو وليد تجارب عديدة وأطوار
وصور وأحداث ومواقف ، من المفروض أن يكون بينها ، موقفه الإنسانى حيال
ما ينظم .

ولكن الرد على ذلك ، يتصل بما يحمله الشاعر بين جنبه من حساسية
مفرطة ، وعاطفة مشبوبة ، هى التى تكون بارزة فيما نحن فيه من حديث ، فإن
الشاعر يمتاز عن زميله بفارق الحساسية والمشاعر والصدق ، والعاطفة المتقدة ،
وبهذا يتفاوتون فى الموازين .

والشعر ينبع من الشعور ، وكل ما يثير العاطفة ويلعب بأوتار القلوب
شعر ، ولكن درجات الحساسية والتأثر العاطفى ، عند تناولهم
الإنسانية ، تتباين فيما يعالجون من أهداف عظام فى نظمهم لما يحسون
ويطرحونه على الناس فى هذا المجال .

وإن تفتانى الفنان فى فنه واندماجه فيه ، حمل فان جوخ الرسام الهولندى الأشهر على أن يقول إنه عندما يرسم زهرة ، يصبح هو نفسه زهرة ، أى يتجسدها ويصبح هو الزهرة ، وهذا من فرط اندماجه فيما بين يديه وأمام ناظره من مادة يريد أن يخضعها لفنه أولاً ولمشاعره وأحاسيسه ثانياً ، وهو فى ذلك أشبه ما يكون بالممثل الذى يندمج فى دوره حتى يصبح هو صاحب الشخصية التى يقوم بتمثيلها ، وليس هو الممثل المعروف بين زملائه باسمه أو شخصه أو صفاته .

* * *

كانت هذه الظاهرة تتمشى فى شعر شوقي وتنساب حتى تكاد تعم كل ما نظم فى أى باب وفى أى زمان وفى أى مكان . فهو إنسان يقف بالإنسانية ، إذا خاطب حجراً فإنه يخاطبه كما لو كان إنساناً تجرى فى عروقه الدماء ، وكان شوقي قد عرف بمحبته للحياة محبة عارمة ، تحمله على أن يحيط نفسه بكل ما هو حى ، حتى لو كان جاداً أو نباتاً أو حجراً :

اسمعه وهو يخاطب أبا الهول .

تحرك أبا الهول هذا الزمان تحرك ما فيه حتى الحجر
أبا الهول لو لم تكن آية لكان وفاؤك إحدى العبر

* * *

أو اسمعه وهو ينظر إلى بقايا معبد (أنس الوجود) ، (فيله) من أحجار ترنح وهى توشك أن تنقض .

قف بهذى القصور فى اليم غرقى ممسكاً بعضها من الذعر بعضاً

كعدارى أخفين فى الماء بضاً ساجحات به وأبدین بضاً

لم ينس وهو يخاطب الأحجار ، حبه للجمال ونظرته إلى بياض السيقان التى
اختفى منها ما اختفى ، وكشفت عن أجزاء منها لتغرى بها الناظرين .
وشوق شاعر موكل بالجمال ، يعرضه بعد أن يتم صياغته كأقن ما تكون عليه
صياغة الصائغ الفنان . ويطرح ما صنع أمام الأعين ، ويدعو كل البشر للتنعم
بهذا الجمال والحسن الأخاذ ، أينما وجد حسن ، وحيثما أطل جمال من صنع الله
فى هذا الوجود .

لا والقوام الذى والأعين اللاتي ما خنتُ رب القنا والمشرقيات
ولا سلوت ولم أهم ولا خطرت بالبال سلواك فى ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك الممنى كل حاجاتي
أو اسمعه يقول :

ردت الروح على المضى معك أحسن الأيام يوم أرجعك
مر من بعدك ما روعى أترى يا حلو بعدى ردعك !
كم شكوت البين بالليل إلى مطلع الفجر عسى أن يطلعك
موقعى عندك لا أعلمه آه لو تعلم عندي موقعك

* * *

وشعر شوقى العاطفى ، ينم عن نفس عفيفة ، وقلب يكتوى ويسلم أمره
للمقادير ، وهذه صفات لا تتردد ولا ينبض بها إلا قلب من غلبت إنسانيته على
عاطفته الحسية .

وهو في عشقه وجهه ، إنسان وفي حب ويغتر بمن أحب فهو يقول :

بني وبينك في الهوى سبب سيجمعنا متينه
الروح ملك يمينه تفديه ما ملكت يمينه

وهو صاحب مبدأ في الحب ، إنساني التزعة ، فهو على يقين من أنه ما دامت قد قامت علاقة حب بين إنسان وإنسان ، فإن هناك وراء الغيب من يرعاها ويحفظها طالما كانت عفيفة طاهرة .

ثم يشكو ما فعلت به العيون شكوى إنسانية تسأل الرحمة :

أدارى العيون الفاترات السواجيا وأشكو إليها كيد إنسانها يا
قتلن ومنين القتل بالسن من السحر بيدلن المنايا أمانيا
وكلمن بالألحاظ مرضى كليلة فكانت صحاحاً في القلوب مواضيا

* * *

وشوق من أبرز الشعراء في تعمقه الأشياء ، حتى يصل إلى أغوارها ، ثم يتحدث بما أحس ، وما انتهى إليه من شعور ، حديث الملهم من ناحية ، وحديث صاحب التجربة من ناحية أخرى .

والفن في رأيي ، إلى جانب تعميقه للحياة ، فإنه محاولة لإعادة تشكيل المراثيات على نسق ينبع من داخلنا ، ومن ذات مشاعرنا ومما تركه فينا من أحاسيس ومشاعر .

وقد سئل فيلسوف عن خير تعريف للفن ، فأجاب :

الفن هو امتزاج الإنسان بالحقيقة والطبيعة . والحقيقة مصدر الشعور

الصادق ، والطبيعة ملهمة للفنان بما تعرضه من مفاتها عليه ، وهي أدرى
بما تثيره تلك المفاتن في التواظر والمشاعر ، فتكشف عما يوقظ القلب العطوف
الشفيف ، وما يزال حتى يختار خيرها ويستأثر بما أثار لبه وعاطفته ، ويعود
للطبيعة التي ألهمته كل هذا البهاء ، ليرد فضلها ويدها عنده ، بأن يسجل افتتاحه
بآلته التي اختصه الله بها ، شعراً أو نثراً ، أو نقشاً أو نحتاً ، أو لحناً أو غناء .
وكان شوقي يمتزج بالطبيعة في شعره امتزاجاً يتحول فيه إلى جزء منها
لا انفصام منه عنها فهي في نظره الإنساني شيء حي ، والحي يألف الحي .

استمع إليه في هذا النظم :

هل تيم	البان	فؤاد	الحمام	فناح	فاستبكي	جفون	الغمام
أم شقه	ما شفنى	فانثنى	مبلبل	البال	شريد	المنام	
يهزه	الأيك	إلى	إلفه	هز	القراش	المدنف	المستهام
وتوقد	الذكرى	بأحشائه	جمراً	من الشوق	حثيث	الضرام	
كذلك	العاشق	عند	الدجى	يا للهوى	مما	يثير	الظلام !

* * *

وهو حتى في حنينه إلى مصر ، عندما كان في منفاه بالأندلس ، كنت
تلمس في ذلك الحنين ، صرخة الملهوف الذى يحن لوطن هو فى قرارة نفسه
فوق كل خلد ، بل هو حبيبه الذى فارقه على غير إرادته .

أحرام على بلبله الدوح حلال للطير من كل جنس !
وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ثم يطول تحنانه إلى مصر مع الأمل في العودة مهما طال الأمد ، فيسرى عن نفسه بقوله :

بنّا فلم نخل من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يغاديننا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت في اليم تلقينا
ولعلنا نحسن إن وقفنا هنا وقفة ، نستبين من هذا النظم ، إحساسه
بالإنسانية ويكلفه بالحياة ، وبإيمانه في الخالق القادر ، فهو يقارن وهو في
منفاه ، بين نفسه ، وبين موسى عندما كان طفلاً ينحشى عليه من بطش
السلطان ، وألهمت أمه أن تلقيه في اليم في صندوق راحت كفالة الله ترعاه
لتعيده إلى أمه لتقر عينها بعودته ، وهذا ما أحسه من أن مصر وهى تبعده ، إنما
كانت تفعل ذلك لفترة وظروف تقتضى ذلك ، حتى إذا مرت المحنة عاد سالماً كما
عاد موسى إلى أمه سالماً معافى ، حتى أن الحالى من الهم ، أصبح يوصف فواده
بأنه أفرغ من فواد أم موسى .

وكأنما كان حافظ إبراهيم شاعر النيل يحس بغربة شوق في المنفى ويحنينه الذى
يملاً قلبه الذى ما نبض نبضة إلا فى حب مصر ، كما كان يحس بما كان يملأ
مشاعره وجرائمه بأمل العودة إلى ذلك الوطن العزيز الذى أحبه كما يحب العاشق
ويتعذب فى وجده ويشقى فى الابتعاد عمن أحب . فشوق دائماً ما تشعر فى ثنايا
شعره بإنسانيته بحيث تحس بأنه يبعث الحياة فى كل ما يحيط به من طير أو نبات
أو جباد ، فما بالك بوطن جمع كل ذلك وزاد عليه الحنين وحب الجارف
اللهم .

فلما عاد من المنى وأقيم لشوق حفل في دار الأوبرا ، رأى شعراء العرب أن
يباعوه فيه بإمارة الشعر وكان ذلك في ١٩٢٧/٤/٢٩ ، حيث ألقى حافظ
إبراهيم قصيدة عصماء ، سبقه في الإنشاد في ذلك الحفل ، الضيوف من كبار
شعراء العرب ، حتى إذا ما انتهوا من إنشادهم قام ليلقى قصيدته التي جاء فيها :

وعدت فقرت عين مصر وأصبحت	رياض القوافي في ربيع موشع
حمى يتهاذى النيل تحت ظلاله	تهادى خود في رداء مجذع
لقد كنت ترجو منه بالأمس قطرة	فدونكه فابرد غليلك وانقع
أمير القوافي قد أثيت مبايعاً	وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

* * *

وعندما انتهى حافظ من إلقاء قصيدته ، وقف الكاتب الكبير والصحفي
الأديب الأستاذ المرحوم فكرى أباطة ، ليلقى قصيدة شوق نيابة عنه وكان هذا
دأبه وسيأتي تفصيله في حينه . والقصيدة كما سيتبين من أبياتها مثال للتواضع
الذي لا يلحق إلا بكل عظيم ، وهو يرجع كل ما أفاءه الله عليه من نعمة النبوغ
إلى مشيئة الله لا إلى جهده وتفرده .

ما الرحيق الذي يذوقون من كر	مى وإن عشت طائفاً بدنانه
وهبوني الحمام لذة سجع	أين فضل الحمام في تحنانه
وترنى في اللهاة ما للمغنى	من يد في صفائه وليانه

* * *

وما دام قد جرى الحديث بنا حتى تعلق بحافظ إبراهيم شاعر النيل ، فإنه

يتعين علينا أن نذكر موقفاً له مع شوقي ينم عن شعور إنساني جليل كريم ، فياض
بالوفاء وأصدق العرفان .

فقد بعث أحمد شوقي من منفاه في الأندلس إلى حافظ إبراهيم بهذه
الآيات :

ياساكفي مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركمو شيئاً نبل به أحشاء صاديئنا
كل المناهل بعد النيل آسنه ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

وقد رد عليه حافظ إبراهيم بهذه الآيات الصادقة النبيلة :

عجبت للنيل يدري أن بلبه صاد ويسقى رباً مصر ويسقيئنا
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

أحد المستمعين :

هل في استطاعة أستاذنا الدكتور المحاضر - إذا سمح الوقت والمقام - أن
نعقد مقارنة بين شوقي الإنسان من خلال شعره ، وحافظ إبراهيم شاعر النيل
الإنسان في مواقف تختلف عن مواقف شوقي .

الدكتور المحاضر :

المجال لا يتسع للحديث عن الشاعرين الكبيرين اتساعاً يفي بقديرهما ، لو أن
الوقت يسمح ، أو أن هدفي من هذه المحاضرة يمكن أن يدخل عليه عقد

مقارنات منذ أن كان مخصصاً للحديث عن شوق الشاعر الإنسان . ولكنى أوجز القول ، لأعرض إلى ظروف نشأة كل شاعر ، لأنها الركيزة التى ينبى عليها مجمل اتجاه الشاعر وفلسفته ومراميه ، ولعلنى بذلك أحقق قدرأ من رغبة السائل . لقد وقف بين الشاعرين حد يحول دون التقائهما عند هدف مشترك ، فاختلاف النشأة ودرجة الثقافة والبيئة والوراثة ، كلها عوامل تؤثر على نتاج وعطاء الشاعر ، ولكل من الشاعرين مدرسته وقاموسه وموسيقاه ، وألفاظه وجرسه وأهدافه ، وهذا أمر كما رأيتم ، يتطلب كتابأ ، يشرح من خلال شعر الشاعرين ، اتجاهاتهما وخصائصهما .

هذه الخلافات بين الشاعرين أثرت فى شعر حافظ الذى نشأ نشأة عوز ويتم حاجة . كفله خاله حتى أنه عندما أحس بأنه عالة عليه ، هجر منزل خاله فى طنطا ليذهب إلى القاهرة وترك ورقة كتب فيها :

ثقلت عليك مؤوننى إلى أراها واهينه
فافرح فإنى ذاهب مستوجه فى داهينه

وقد أحس بالبؤس فأحسن التعبير عنه ، وقد ترجم رواية البؤساء لفكتور هيجو حيث استهواه مضمونها ، وما تحمله بطلها من شظف العيش وضم النصيب ، وقد عبر حافظ عن ذلك أبلغ تعبير عندما وصف سعيه ودوام فشله فيه يقوله :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما وعدت وما أعقبت إلا التندما

ونشأته في كفالة خاله بسبب يتمه ، حملته على الإحساس في التعبير عن
ليتامي والأيامي . وأحس الظلم فحمل على الظالمين . وكان من غلاة الوطنيين ،
حيث قد اكتوى بنار المستعمر ونار الحاكم المستبد .

وثار في وجه الظلم عندما كان ضابطاً في الجيش في السودان ففصلوه
وأعادوه إلى مصر وهو خالي الوفاض ، يواجه الحاجة والعوز ، في رجولة وعفة
يد لولا ما كان يحيطه به الإمام الشيخ محمد عبده ، بمساعدات لا تجرح شعوره
كالتصحيح في بعض الصحف أو مراجعة بعض الكتب .

ولكن موضوعنا اليوم يقتصر على إنسانية شوقي من خلال شعره ومن خلال
جولاته في مشرق كان أو في مغرب .

لقد نشأ شوقي نشأة مختلفة كل الاختلاف ، فقد ولد في بيت ميسور الحال
من أب كان يعمل في معية السلطان في إستانبول أو في قصر الخديو إذا عاد .
وتوفيت والدته وهو صغير . ولما كان أبوه بعيداً في إستانبول ، فقد كفلته جدته
لأمه . وهذه الجدة هي السيدة (تمزار) معتوقة إبراهيم باشا والى مصر .
وهي من شبه جزيرة المورة . وقد كانت هدفاً للمغيرين الذين اتخذوا من
خطف الفتيان والفتيات الجميلات مهنة يتكسبون منها يبيعهم أسراهم بأعلى
الأثمان .

وكانت جدته من نصيب الوالى إبراهيم باشا الذى لم تلبث طويلاً عنده حتى
أعتقها وهي في سن العاشرة ونزلت عنده بمرتلة بنت من بناته . حتى أنها لما
تزوجت وأنجبت كانت تتردد على قصر إسماعيل ، وكانت تصطحب معها أحمد
شوقي .

وكان الصغير قد أصابته علة تركت عينيه في اختلاج دائم وينظران دائماً إلى أعلى ، الأمر الذي حمل الخديو إسماعيل على سؤال الجدة عن هذا الشأن الغريب ، فأجابت بأنه ولد هكذا ، فقال إن دواءه عندي ، ثم قام بنثر جنيهاً ذهبية على البساط فهبط الطفل إلى الأرض وراح وراء بريق الذهب يجمع ما استطاع جمعه في كفه الصغيرة ، وانخفضت نظراته وصار ينظر لفترة قصيرة نظرة طبيعية ولكنها سرعان ما تعود لحالتها الأولى .

وقال الخديو للجدة أرأيت كيف استطعت أن أشفي بعض الشيء ما ألم بالطفل ، فقالت الجدة : ومن أين لنا بهذا الدواء يا مولاي بصورة دائمة ، فأجابها : إيت به إلى صيدليتي هذه - وأشار إلى جيبه - وهذا هو دواؤه ، وهو معي كلما حضر .

* * *

وعندما صار فتى وجد أنه ولد وسط معترك من المشاكل الدولية المتأصلة . فقد كانت روسيا في حرب مع تركيا ، وكانت تركيا دولة الخلافة ، وكان المصريون يعطفون على تركيا لهذا السبب ولروابط أخرى ووشائج القرى والنسب بين الكثير من العائلات في البلدين .

وقامت خلافات بين فرنسا وإنجلترا بلغت حد الالتحام بالسلاح وكان هدفها احتلال مصر ، وتيسر لفرنسا أن تحتل مصر في عهد نابليون فترة قصيرة ، ما لبثت بعدها أن انسحبت تحت ضغط الأسطول البريطاني ، وكانت بريطانيا تريد أن تحتل مصر لتأمين طريقها إلى الهند ، وكانت تريد أن تريخ إسماعيل من طريقها ، وتم لها ذلك وجاء من بعده توفيق الذي قامت في عهده ثورة أحمد

عراى الى لم تنجح بسبب الخيانة ، وبالتفاوت الكبير بين القوتين .
كان الإنجليز قد وعدوا بالجلاء ، ولكنهم نكثوا بعهدهم ، وأحس
المصريون من كل ما كان يحيط بهم أنهم مطمع للدخيل من كل جنس ، فدبت
في أرواحهم مشاعر متأججة ، تريد التحرر من ذل العبودية والاستعمار
والاستغلال ، فتزايد النشاط والدعوة إلى بعث الحضارة الإسلامية والأدب
العربي في مصر ، فهما الطريق إلى بعث الهمم والتذكير بما كان لأسلافهم من
عزة ونخوة وحرية ، ومن الطبيعي أن تكون الكتابة والنظم والخطابة والندوات
والاجتماعات هي السبيل إلى كل ذلك ، وكان الشعر أسبق كل هذه الوسائل إلى
القلوب لما احتواه من موسيقى تعين على حفظه وترديده وسط هذه العوامل
السياسية والاجتماعية .

ولد شوقي في عهد إسماعيل ، وكان طبيعياً أن تتأثر نفسه الحساسة بالبيئة
الاجتماعية والسياسية ، كما كان طبيعياً أن يكون هو بالذات ، الذي يتلقف أبعد
الأحداث وأخفت الأصوات ، أكثر ممن حوله تأثراً بهذه الحوادث ، وبهذه
البيئة المشحونة بوقائع في طيات الغيب ، لما حوته نفسه من شفافية ورقة .
وهكذا كان لكل هذه العوامل أثر بارز في شعره وشعوره ، لازمه طوال
حياته ، فقد أحس أنه موكل بأن يكون لسان أمته العربية بنظمه البعيد الأثر .
وقد دخل شوقي مدرسة المبتدیان الابتدائية في مصر ثم التجهيزية وهي
الثانوية ثم مدرسة الحقوق الخديوية ، وحدث أن زار الخديو توفيق مدرسة
الحقوق ، وكان شوقي وهو طالب بها قد بدأ يمارس كتابة الشعر ، وعن له أن
ينظم في هذه المناسبة أبيتاً من الشعر ، نالت استحسان توفيق ، فأمر بأن يرسله

فى بعثة إلى فرنسا لىدرس القانون فى إحدى كلياتها ، ولىعش فى جو وبيئة فنية تنفق وموهبته الباكرة التى انسابت فى بواكير شعره ، مبشرة بمولد شاعر عظيم ، ولببيئة أثرها على الفنان ، والاختلاط بأجناس أخرى والاطلاع على أدب الغرب ، والحياة النضيرة الفنية بين مسرح وموسيقى ورقص تعبيرى وغناء ، كل ذلك ينطبع أثره على الفنان ، ويكون بمثابة الوقود الذى يدفعه إلى الأمام بخطى واثقة سليمة .

على أن شوقى برغم كل ما أحاط به وهو فى أوربا ، وبرغم تأثره بالوسط الأوروبى والحياة الأدبية الثرية والشعر الأوروبى الرقيق ، وبرغم تأثره البارز بذلك ، فإنه لم ينس أنه شرقى عربى جاء لىغترف من منهل عذب يستعين به على ما كان يعد نفسه له . وكأنما جمع فى ذلك بما فى بناء معمارى عربى الطراز فى نقوشه وعمارته وزخارفه ، وما احتواه من طرائف غربية وصور فنية رقيقة الصنعة . انتشرت فى أبهاء وغرف هذا البناء الشرقى ، فأكسبته طلاوة ورقة وجالا . من صور زيتية إلى طنائس وثرىات وتمائيل ونحف بديعة الصنعة . ولهذا نجد أن تأثره بالبيئة الأوربية لازمه طول حياته وأمدته بروافد جديدة على الشعر العربى ، ككتابة المسرحية الشعرية والأوبريت وحكايات على ألسنة الحيوانات مثلما كان يصنع لافونتين ، وطرقه باب الأغانى بأخيلة حديثة على ما كان ينظم فى عصره أو ما سبق عصره أو ما جاء بعده ، مثل أغنية (فى الليل لما خلى) أو أغنية (بلبل حيران) . إنها قصص غنائية كأوبريت صغيرة فيها البداية والمضمون والختام ، وهكذا نراه من بين الشعراء فى عهده قد أضاف أوتاراً جديدة على قيثارة الشعر المألوفة .

والقارئ لأشعار شوقي تستوقفه ظاهرة عجيبة . إنه يقف أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف ، لا صلة بين أحدهما والآخر ، إلا أن كليهما شاعر مطبوع يصل في الشعر الإنساني إلى علياء سماواته ، وأن كليهما مصرى عربى شرقى يبلغ حبه لوطنه مرتبة القداسة والتفانى والعبادة له لأنه من خلق الله . أحدهما مؤمن عامر القلب والنفس بالايان ، وإنسان يقف نظمه ومشاعره على كل ما يتأثر به وجدانه ، ما اقترب منه مما يثيره ، أو ما ابتعد عنه غاية البعد ولكنه يتصوره وتحس روحه الشفيفة به .

وهو حكيم يرى الحكمة نبراس العقل والايان ، وهو متعصب للغته العربية ، حريص على أن تأخذ مكانها بين أرقى لغات الأرض . فإنه يراها لغة تتسع بكل صورة وكل فكرة وكل معنى وكل خيال .

أما الرجل الآخر فهو رجل دنيا ونعيم ، يرى أن الله خلق النعيم في الدنيا ودعا الناس إلى التمتع به ، فهو نعيم كفله الله لأبناء الحياة ليأخذوا منه بنصيبهم . وهو متسامح تتسع نفسه للإنسانية والوجود كله .

وهو مجدد في اللغة لفظاً ومعنى ومبنى ، لأنه يراها كما يرى كل ما في الوجود ، كياناً حياً يجرى عليه ما يجرى على الأحياء .

نخلص من هذا إلى أن الازدواج الظاهر في شعر شوقي بين دين ودنيا ، قد لازم منذ أول شبابه حتى آخر عمره إلا قليلاً .

وليس للازدواج النفسى عند الشعراء ، أو انقسام الشخصية عند الشعراء دخل في هذا الشأن ، وأمامنا مثل واضح في أبي نواس ، وما كان يقوله من شعر يتردد بين الشائنين ، فهل أبو نواس الذى قال فيما قال :

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهر

هو نفس أبي نواس الذي لبس لبوس الحكماء وذهب يقول :

إذا امتحن الدنيا ليبب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

أو هو الذي كان يبهل قائلًا :

ليبك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

وهناك رأى لباحث كبير في مثل هذه الشئون النفسية ، ينطوى على منطق صائب وتحليل سليم ، فهو يقول إن هذا الأمر ليس ازدواجاً في الروح . وما الحكمة الزاهدة التي هبطت على أبي نواس ، إلا فتور نفس أجهدتها اللذة والمتعة فأضعفتها ، فأخافها الضعف الذي ألجأها إلى حمى الحكمة والزهد وإلى استغفار الله والتوبة إليه .

وشوق - كما ذكرنا - من هذا القبيل في شعره صورتان من صور الحياة ، يقوم كل منهما بدوره مستقلاً عن الآخر كأنما قائلها شخص أجنبي تماماً عن الأول ، فأنت تقرأ له :

خف كأسها الحبيب فهي فضة ذهب

أو يطالعك من شعره قوله :

رمضان ولي هاتها ياساق مشتاق تسعى إلى مشتاق

وهنا ترى نفسك في حضرة شاعر مغرم بالحياة ومتاعها وأنعمها ، ثم
لا تلبث أن ترى صورة مخالفة تردد في خشوع :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

أو تراه في موضع آخر يقول في نهج البردة :
رم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
يا نفس دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم

إلى أن يقول :

لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتم
وشوق في يقيني وهو يتجسد هاتين الشخصيتين ، إنما يكشف عن دخيلة
نفس تمتلئ بالحياة والخيال ونور الإيمان والتعلق بأسباب السماء ، وإعلاء كلمة
الحق ، لأنه قبل كل ذلك وبعد كل ذلك إنسان يفيض حسه بالإنسانية وبكل
كوامن النفس البشرية التي تعترها القوة كما يعترها الضعف .

* * *

والشاعر الإنسان في مثل نشأة أحمد شوقي ، وما حباه الله به من فيض غامر
في العاطفة والإحساس والخيال الرفيع والصدق في التعبير ، يتدرج مع تاريخ
وطنه منذ عهود القراعنة وما تعاقب على مصر من رفعة تارة وانخفاض تارة
أخرى ، ويقف وقفة المصري الصادق العاطفة ، حيث تفيض عليه ربة الشعر
بما يؤنسه في هذا الترحال من قصص يرويها عن رمسيس وأبي الهول وتوت عنخ

آمون وآمون وفرعون موسى ، إلى أن يصل إلى مصر العربية .

حيث تبين لقارئ نظمه ، روحه الإنسانية الشفيفة وهي تفوح ليستخرج
الآلئ من أعماق الأحداث ويعرضها في موكب زاهر براق يهر الأنظار ويوقظ
الأفكار ، وكأنما هو قيثارة إلهية يدفع إليها كل جيل بأصفي نسائمه ، ليتغنى
ويشدو بأهازيج النصر تارة ، وبترانيم المسرة طوراً ويشجو الألم أحياناً عندما
يتعرض شباب ورجال جيله إلى منازل الغاضب وما يلقونه على يديه من قهر
وطغيان .

وهو في عرضه لآثار بلاده وما حوته من إعجاز وطلاسم تجل عن كل
وصف ، يقف موقف الإنسان من كل هذا الإبداع ، فلقد خلع القدم على هذه
الآثار رداء البقاء والثبات ، وتحدى الزمن وطاول معاول هدمه ، وهذه أمور
أمدت شوق وروح شوق وشاعرية شوق الإنسان بما يفيض به الوحي على روح
شاعر الشرق الذي شاءت إنسانيته أن يتحدث مع هذه الآثار ، وأن يزهر ببقائها
ثابتة لا تزعزعها الحوادث أو مر العصور .

وله في العلم والفن والعمل والجمال والترحال آيات بينات ، ينساب فيها روح
الإنسان الداعي إلى التمسك بالخلق الصالح على اعتباره قوام الحياة في الأمم ،
وهو يرى أن الخلق القويم خير من المخلوق القويم . وله بيت في قصيدة طويلة
أصبح يتردد على كل لسان ، كما غدا مثلاً وبات دستوراً يدبر وينظم ويحكم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
ولم يكن شوق شاعراً لمصر وحدها . فهو شاعر ينبض قلبه الكبير بحب

الإنسانية أينما وجدت على أى صورة تكون ، وهو لذلك لا تراه يفرق بين الأوطان ، فهو هو شاعر مصر كما هو شاعر العرب ، وشاعر الشرق ، وشاعر المسلمين ، وكل الأديان .

وهو فى موقفه من هذه الأحاسيس ، أشبه ما يكون بالرادار الإنسان ، الذى ترسم على مخيلته كل ما يقع فى أى بقعة من بقاع الأرض من نكبات وأحداث ، أو من اعتزاز باختراع أو اكتشاف يدعو إلى الافتخار ، ويطرح فى شعره المعبر ما أثار وجدانه حيال هذه الأحداث .

فى العشرينيات ، وقع فى طوكيو زلزال عنيف ، ما إن بلغ نبؤه مسامع الشاعر الإنسان شوقى واطلع على فداحة الكارثة ، حتى بادر بنظم قصيدة طويلة عن النكبة ، بدأها بقوله :

قف (بطوكيو) وطف على (يوكوهاما)	وسل القرينتين أين القيامة
قف تأمل مصارع القوم وانظر	هل ترى من ديار عاد دعامة
خسفت بالساكن الأرض خسفاً	وطوى أهلها بساط الإقامة
دولة الشرق وهى فى ذروة العز	نحار العيون فيها فخامة

إلى أن يقول :

لو تأملتها عشية جاشت خلتها فى يد القضاء حمامه

ثم يمضى ليقول :

تجد الأرض راحة حيث سالت	راحة الجسم من وراء الحجامه
مالها لا تضج مما أقلت	من فساد وحملت من ظلامه

سؤال من أحد الحاضرين :

لقد علمنا كيف أن شوقي درس في فرنسا وارتوى من المدنية الغربية وانغمس في كل ما يبهر منها وما يملأ النفس إعجاباً وتقديراً ، فكيف تسنى له بعد هذه البداية ، أن يتعمق اللغة العربية ، وينظم الشعر العربي الذي تميز بديباجة قوية النسيج وبألفاظ رقيقة الجرس . وببلاغة فيها البيان والبديع والمعنى الجليل والخيال الفريد حتى بز من سبقه أو من خلفه وأتى بعده . . هذا إذا تركنا جانباً نشأته في بيئة بعيدة عن الاهتمام بالعربية .

المحاضر :

أحس شوقي بعد عودته إلى مصر من بعثته في فرنسا ، أنه ليس شاعر مصر وحدها التي يتسمى إليها ، فقد كان قلبه وأحاسيسه تجيش بأخيلة وصور ومعان ولغة وبيان ، تتسابق لتحتل إرادته التي لا تلبث أن تطيع تلك الأحاسيس الجائشة لي طرحها شعراً علوى النسق والنسيج ، فهو إذن موكل برسالة ، وهو إذن ممن أمسكت بهم شرارة الفن المقدسة ، فكيف يقنع بأن يكون شاعر مصر . إنه شاعر العرب أجمعين وشاعر المسلمين وشاعر كل العقائد وشاعر الشرق ، ووجد أن هذه المسئولية التي هي إرادة علوية مقدسة تتطلب منه أن يوفر لها أثمن ما لديه من أخيلة وصور ومعان ، ليكون شاعر اللغة العربية السليمة ، طالما كان هو لسانها وخطيبها والسباق إلى ذكر مناقب العرب ، وما كان لهم منذ الفتح الإسلامي من عز وسؤدد ، ومن آثار ما تزال شاهدة على ما كانوا عليه من قوة ومعرفة وحضارة ، كان عليه أن يتزود من كتب الأقدمين

ودواوين الشعر العربي الرصين ، منذ العصر الجاهلي حتى العصر الإسلامي عندما كان في مجده التليد .

ومما لا شك فيه أن الحكمة التي يستمدّها شوقي من إنسانيته التي تفيض بها مشاعره ، تجدها تسرى في وصفه وفي غزله وفي رثائه وفي تهانته وفي استخلاص العبرة من الأحداث التي تقع حوله ، بلسان عربي فصيح مبين ، منذ أن كان هو سجل هذه الأمة العربية والمتحدث عن أدق الأحاسيس الإنسانية التي يراها في زهر أو جهاد أو إنسان .

وهو في كل ما نظم لا يشعر له بأنه تأثر بالحياة الغريبة إلا بمقدار ما تحتاج إليه الأمة العربية ، من نصيح أو إرشاد أو تقليد لفضيلة يحسن انتهاجها . ولقد نرى شوقي يغلو في شوقيته وعربيته أحياناً ، ولقد نراه يعتمد ذلك في لفظه ومعناه ، ومرد ذلك إلى ما رآه من ضرورة مقاومة التزعة القائمة التي تتحكم في نفوس كثيرة ، وتعمل على إهمال ما خلف السلف من تراث ، والأخذ بكل ما هو جديد أو مستحدث .

وهو في بعثه للقديم إنما يصدر عن إنسانية تشبث بالحياة ، وبالقديم ، فهو إدخال ما يزيد هذه الحياة نضارة وقوة وازدهاراً ، وهو ما رآه واجباً يحمل هو مسؤوليته ويتولى شأن تقويمه .

فهو يعتمد إلى بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس ، وتنكروا لها . وسر ذلك عند شوقي ، أن البعث وسيلة من وسائل التجديد وعودة الروح . بل قد يكون البعث أكثر وسائل التجديد انتشاراً ونجاحاً والتجديد له ، إلى جانب ربط السلف بالخلف ، معنى إنساني يتمثل في الوفاء وتوقير القديم .

وشعر شوقى ملئ بالأمثلة الدالة على قدرة فائقة لا تجارى فى بعثه لألفاظ
قديمة ، وإفاضته عليها من رقيق شعره ما يجعلها تتسع لما لم تكن تتسع له من
قبل ، من المعانى والأخيلة والصور ، وهكذا نراه خلاقاً ومبدعاً وباعثاً الحياة فى
الفاظ وجمل وتراكيب أوشكت أن تندثر ، ففضى كالطبيب الماهر يفضى عليها
من عرفانه وقدراته ، بما يملأها بالحياة ، لأنه محب للحياة ، ولأنه ينظر إلى كل
ما حوله بمنظار إنسانى ، تشيع فى جوانبه الحركة والقوة والنماء ، فهو إنسان يحب
كل إنسان ما دام هذا الإنسان قادراً على العطاء الطيب ومتمتعاً بالخلق السوى ،
فهو يرى أن الأخلاق هى أصل الحياة . وركيزة الإنسانية ، وقوام كل عمل
جليل .

وهو يمجّد كل شىء يعطى ويبعث الحياة ويمقت كل ما يدمر الحياة أو من
يدمرها ، ويهلك من على الأرض بغرض القوة والسلطان ، ولأنه شاعر فهو
محب للسلام وللجمال وللخير ، ويرى الحياة من حوله ربيعاً مزدهراً بأينع
الأزهار ، تؤنس زقزقة العصافير ونواح الأطيّار ، اسمعه فى موقف من هذه
المواقف :

وشدت فى الربا الرياحين همساً كتغنى الطروب فى وجدانه
نعمّ فى السماء والأرض شتى من معانى الربيع أو ألحانه

المحاضر :

أستاذكم أيها السادة فى أن أنتقل بكم إلى جانب من جوانب شوقى
الإنسانية فى مواقف كانت تثير نفسه وتحمله على النظم ، وقد كان كل ما يتظمه

يسرى مسرى النسيم على كل لسان . وكانت قصيدته التى تنشرها صحيفة من الصحف تلتقفها الأيدى ، وتصبح حديث المجتمع ومثار مناقشاته ، وهو أمر كان يعمل له المستعمر ألف حساب .

ففى مناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل باشا زعيم الحزب الوطنى ، نظم قصيدة تناول فيها ما أصاب البلاد عام ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناصر ، وأشار إلى تصريح ٢٨ فبراير الذى تضمن التحفظات الأربعة وهى التى قيدت استقلال البلاد وجعلته مسخاً ، كما تناول موقف بعض الزعماء حياله ثم ذكر ما تحتاجه البلاد ونصح باستخدام وسائل للإصلاح ونبد الخلاف . ذهب يقول :

إلام الخلف ينكمو إلأما ؟ وهذى الضجة الكبرى علاماً ؟
وفيم يكيد بعضكمو لبعض وتبدون العداوة والخصاماً ؟
إلى أن يقول :

وكانت مصر أول من أصبم فلم تُحص الجراح ولا الكلاما
إذا كان الرماة رماة سوء أحلوا غير مرماها السهاما
طلعنا وهى مقبلة أسوداً ورحنا وهى مدبرة نعاما
ولينا الأمر حزباً بعد حزب فلم نك مصلحين ولاكراما

إن شوقى فى هذا الموقف يقف موقف المعلم الإنسان الذى يخشى عاقبة هذا التناحر ويبشر بأوخم العواقب ، وما له من مقصد أو غاية إلا رفعة الإنسان

وأما موقفه من مذبحه دنشواى فقد نظم بعد مرور عام على هذه الحادثة الأليمة ، بعد ما نظمه عند وقوعها ، قصيدة ضمت بكل الإياء ، طلب العفو فيها من سجنائها ، مستعيناً بالأثر الذى تركته القضية فى الضمير العالمى ، كما أثارت مناقشات فى مجلس العموم البريطانى كان من نتائجها إبعاد كرومر من مصر :

يا دنشواى على رباك سلام	ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا	هيات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحد أهلة	ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها	وبأى حال أصبح الأيتام
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها	بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليت شعرى فى البروج حاتم	أم فى البروج منية وحام
(نيرون) لو أدركت عهد (كرومر)	لعرفت كيف تنفذ الأحكام

* * *

ولم تكن تمر بالعالم أحداث من كوارث طبيعية أو حرية أو اجتماعية ، إلا وشارك بنظمه داعياً جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر والحكومات والشعوب إلى مد يد العون لهؤلاء البؤساء الذين أصابهم محن هذه الأحداث . هذه المشاركة الوجدانية للمصابين ، لا تنبع إلا من قلب امتلأ بحب الإنسانية الشاملة ، التى لا تفرق بين دين ودين أو جنس وجنس أو لسان ولسان . إن البشر كلهم عنده سواء ، إنهم أبناء الإنسان الأول آدم . وهم خلق

الله العلى القدير الذى يسبح دائماً بحمده ويستزيد من رضاه على خلقه .
أما صورته الدينية الشعرية التى شدت بها الراحلة الكريمة السيدة أم كلثوم ،
فإنها تفيض بنفثات روح إنسانية وسبحات قلب يدعو إلى تعظيم الله وإشاعة
الحبة بين خلق الله ، ولقد تسنى له بهذه القصائد أن ينشر معانيها إلى العامة قبل
الخاصة بفضل ما أودعه فيها من تهجد وابتهاال ، وبفضل ما خلعه الموسيقار
القدير رياض السنباطى على ألفاظها ومعانيها من جلال وجلال ، وكان الصوت
المحملى النادر الذهبى لأم كلثوم ، هو الموصل بحلاوة إنشاده وطلاوة إيقاعاته
وسبحاته ، لكل الآذان وكل الأفهام مهما ابتعدت المعانى من المستمعين الذين
كانوا يدركون من قدرة الصوت ورقة اللفظ ورشاقة النغم ما لا يستطيع الإنشاد
وحده أن يقوى عليه .

وماذا أقول وماذا أدلى فيما نظمه فى سيد الخلق النبى الكرم محمد عليه
الصلاة والسلام :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

أو نظمه :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

وفى يقول :

ولا ينبئك عن خلق الليالى كمن فقد الأحبة والصحابا

أو نظمه :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

* * *

وفي كل هذه القصائد النبوية نجد الحاسة الإنسانية بارزة بروزاً محسوساً
ملموساً ، لا ينسى فيها بطر الغنى ، أو ينسى حاجة الفقير .

ولولا ما امتلأ به قلبه من الإيمان ، ومن العالمية في الأديان ، وفي حق كل
مخلوق في التمتع بما خلق الله ، لما استطاع أن يبلغ هذا الشأن وهذه الروعة ،
وفاقد الشيء لا يعطيه .

أحد الحضور :

أستاذ الدكتور المحاضر ، في سؤال يلح على كلما قرأت لشوقي - وما أكثر
ما قرأت - شعراً عريباً بأفصح لسان وأبدع بيان فأسأل نفسي من أين لشوقي كل
هذا العلم بالفصح من اللغة ، والتادر من البيان ، والرقيق من الديباجة ، وهي
أمر تتطلب التخصص والعود للتفرد فيها ، وهو قد ترعرع في بيت عز ويسر ،
يعفيه مشقة البحث والاجتهاد ، ويوفر له مطالب الحياة من أقرب سبيل وأهون
وسيلة ، هذا إلى جانب أنه تربى في مطالع شبابه تربية أوربية ، وتلقى العلم في
معاهد فرنسا ، وعاد وهو على هذه الحالة من البلاغة والفصحى السليمة
القوية .

المحاضر :

لم تكن نشأة شوقي في قصر والديه ، محاطاً بكل ما تصبو له النفس ، بمناعة من تحقيق صبوات نفسه ومحبه للغة العربية ، والغوص وراء دورها ، ما دامت قد استهوت وملكت عليه كل مسالك تفكيره .

وحبك الشيء يحملك على أن تستهين بكل مشقة لبلوغه .

وقد قال شوقي فيما بعد في البوصيري ، عندما نظم نهج البردة ، التي حوت أشرف المدح في سيرة الرسول الكريم :

مدبجه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يملئ صادق الكلام
وفي تصوري أن الفترة التي أمضاها شوقي في بعثته بفرنسا لم تكن حائلاً له من بلوغ هواه من الاطلاع الدائب على كنوز اللغة العربية وآدابها ، ما دامت نفسه تواقه إلى هذه الرغبة ، متلهفة على بلوغها ، فالكاتب العربية بأقلام أفذاذ الكتاب فيها ، في تناول بده مها شط المزار وابتعد أو اغترب ، طالما كان حبه العام لبلوغ هدفه هو شاغله ومهوى قلبه وعقله ونهاه ، وكان ميله هذا قد بدأ باكراً في حياته . وقد تحرك هواه للشعر منذ مطلع حياته ، فنظم قصيدة عندما كان يطلب العلم في مدرسة الحقوق الخديوية أمام الخديو توفيق ، وكانت من حسن الطالع قد وجدت سبيلها سهلاً ليناً إلى قلب الخديو الذي أمر بإرساله إلى فرنسا في بعثة لاستكمال دراسة القانون ، ولينهل من موارد فرنسا العذبة ، وما بها من مجالات تجمع بين المتعة والعلم ، فاشتت من نعيم أو رغد العيش أو المرح الشعبي ، طوع بنائك ما دمت قادراً ، وما شئت من علم وفن وأدب في أعلى ذراها منتشرة في كلياتها ومجامعها وندواتها ومعاملها ، وما شئت من فنون

المسرح والتماثيل والصور ، فوق العدد والحصر ، وما شئت من رياض ومعان
تحرك الوجدان وتوحى بأجمل الكلام نثراً كان أو شعراً ، تلقاه أينما وليت
وجهك ، هذه الفنون جميعها إلى جانب ما حواه قلب شوقى من حب عارم
للغة العربية ولنظم الشعر ، كانت هى الخلفية والقاعدة والعون فى ترفيق أى
حس كان شوقى فى غنى عنه ، لأنه ولد مؤهلاً لقول كل جميل ، هذا إلى
جانب أنه نذر نفسه لأن يتبوأ من دولة الشعر أعلى مقام ليتحقق له بذلك أن
يكون شاعر العرب ، منذ أن اجتمعت له موارد ومواهب وهواتف كانت قيمة
بأن تأخذ بيده إلى هذا المرتقى السامق الرفيع .

فكيف يتوانى عن أن يستكمل كل مستلزمات هذا المطلب العسير ، مهما كلفه
أمره من اطلاع دائب دائم ، ومن رجوع إلى موسوعات القواميس وجوامع
الكلم ودواوين الشعر منذ العصر الجاهلى حتى شعر العصر الوسيط وما تلاه ،
وكان أبو الطيب المتنبى شاعره الأثير ، الذى جذبه إليه حبه للحكمة والدأب
الدائم فيما يصبو إليه ، وما يتميز به شعره من ديباجة رفيعة النسيج ومن لفظ
تترقق فيه موسيقى محببة شجية .
وإذا كان ابن رشيق - شيخ نقاد عصره - فى كتابه (العمدة) ، قال عن
المتنبى :

« حتى ظهر المتنبى ، فملأ الدنيا وشغل الناس » ، فإنى أعتقد وأجزم بأن
ابن رشيق لو شهد عصر شوقى لقال :
« حتى ظهر أحمد شوقى فشغل الدنيا وبهر الناس »
وكيف لا يبهز الناس من نظم فى آثار الفراعنة .

ضور تريك تحركا والأصل في الصور السكون
ويعر رائع صمها بالحس كالنطق المبين
صحب الزمان دهاتها حيناً عهداً بعد حين
خدع العيون ولم يزل حتى تحدى اللامسين

أو الذي يقول أو يصور في دمر (إحدى ضواحي دمشق) هذه الصورة :

والحور في (دمر) أو حول هامتها حور كواشف عن 'ساق وولدان
وربوة الواد في جلاب راقصة الساق كاسية والنحر عريان

وهو يصف شجر الحور بالنساء الحور والراقصات ، فشجرة الحور تمتلئ
جذورها وسيقانها بالفصون والأوراق ، في حين تخلو أعاليها من هذه الأوراق ،
شأن الراقصة التي يتعري نحرها وتكتسى ساقها ، نرى في هذين المثلين أو
الصورتين الناطقتين النابضتين بالحياة التي أودعها فيها الشاعر الإنسان الفنان
القدير ، إن هذا الشاعر يكلف بالخلق وبعث الحياة فيما يصف أو يحكى .
لقد بلغ الذروة عندما بعث بالحركة والحياة في آثار الفراعنة ، حتى جعلها
تخدع العيون النواظر ، وجعلها فوق ذلك من فرط الإتيان والروعة ، تتحدى
اللامسين .

وكأنما أراد الله في محكم عدله في كل الأمور ، أن يمنح شوقي كل هذه
المواهب التي تنطوي على شعر موسيقى ، وذوق رفيع ، ولفظ جزل ، وديباجة
قوية النسيج ، فريدة النهج ، إلى جانب إنسانية تفيض بها مشاعره وتجري في

أحاسيسه ، ارتفعت به إلى مصاف المصلحين الداعين إلى الخير وإلى نبد الشر ،
أراد الله - كما ذكرنا - أن يحرمه من القدرة على قراءة ما ينظم لعله عصبية
كانت تلازمه وتعتقه عن القراءة من الورقة المعدة للإلقاء ، بسبب اختلاج عينيه
وعدم ثباتهما ، مع النظر إلى أعلى ، دون ما استقرار .

ومن قبله فقد (بيتهوفن) سمعه فكان يتمتع سامعيه بالنادر من سيمفونياته
دون أن يقدر على سماع عزفه ، مكثفياً بشعوره بعطائه الجيد النادر المثال .
من أجل ذلك تعذر على شوقي أن ينشد شعره مما حمل بعض الألسنة
الحاسدة على نقده والطعن فيما لا قدرة ولا يد له فيه ، الأمر الذي حمل شاعر
النيل حافظ إبراهيم إلى أن يرد عنه شر هذه الألسنة بقوله :

يعيون شوقي أن يرى غير منشد وما ذاك عن عي به أو ترفع
وما كان عيياً يحىء بمنشد لآياته أو أن يحىء بمسجع
فهذا كلهم الله قد جاء قبله بهارون ما يأمره بالوحي يصدع

ومن الحكم البالغة قولهم « إن القدر يعطى على قدر ما يأخذ » .
وقد كان المغفور له الكاتب الكبير فكري أباطة والدكتور الأديب سعيد
عبده من المنشدين لشعره في المحافل والندوات .

* * *

ويجدر بنا ونحن بسبيل تحليل نفسية أحمد شوقي الشاعر الإنسان ، أن نذكر
أنه كان كبير الإيمان ، والإيمان مبعث كل الفضائل ، والرجل المؤمن يخاف الله
ويعطف على البائس ويعين الضعيف ، ويسأل الرحمة بالمكذوبين الكادحين ،

حتى لتظن أنه موكل بالدفاع عن فريق كبير من البشر ، حرّموا الحق في الحياة ، وإن كان لهم في كافة الشرائع ، وفي منطق الإنسانية ، نصيب في أموال الأغنياء ، فلا يصح في العقول أن يموت ثرى من التخمّة ويموت فقير من الجوع ، مما حمّله على أن ينظم أبياتاً في قصيدة (ولد الهدى) تناولت هذه العاطفة الإنسانية الكريمة :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهي حقيقة نادى بها سقراط والقدماء
إلى أن قال :

الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء
الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متتداً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة لأمّنة ممنونة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل في حق الحياة سواء

إنك تحس وهو في موقف الدفاع هذا عن حق الفقير في مال الغنى ، عن طريق الزكاة ، التي هي ركن من أركان الإسلام ، بأنك أمام إنسان يتّمسك إلى عراقة في الإنسانية وأصالة في اختيار اللفظ والمعنى ، بحيث لا يشعر الفقير بأنه يسأل له إحساناً ، ولكنه يشعره بكرامته وبحقه في مال الغنى إحقاقاً للحق وتحقيقاً لشريعة الله .

أحد المستمعين :

لا نشك في إنسانية شوقي التي جعلته على أن يشارك ويسهم بنظمه في كل حدث يدعو إلى البذل والعطاء ومد يد العون ، غير أن العصر الذي عاشه شوقي لم تكن وسائل الإعلام والنشر منتظمة ومتنوعة أو قادرة على إيصال ما ينظم لكافة الناس ، فكيف تسنى للناس وللأقلام وللمتابعين للحركة الأدبية ، بما تضم من مقرّظين أو ناقدين ، أن يلموا بما حواه شعر شوقي من أهداف بعيدة ، ومرام سامية ، ربما تفرد بها بين الشعراء ، منذ أن كانت الحكمة والدعوة للوئام وحب الخير والعطف على الكادحين والتحرر من كل قيد يعترض الحرية ، ومنذ أن كانت كل هذه الصفات والمزايا تنساب في شعره كعروق الذهب في مناجمه أو حبات اللؤلؤ في العقد المنظوم ، وكيف يتسنى العلم بكل ذلك في أقصر وقت وبأسرع وسيلة ؟ .

الدكتور المحاضر :

هذا سؤال جاء في حينه قبل أن ندخل إلى عالمه الإنساني الكبير كمائل يتعلق بأبنائه وأسرته والمقربين إليه ، وكعاشق لوطنه وللأمة العربية جمعاء ، وكأخ تحس الفرحة في تهنتته لأحد الأصدقاء بخير ناله ، كما تحس الحسرة والألم اللافت عند مواساته لصديق نزلت به مصيبة ، إنه في إخوانياته إنسان . قبل أن يكون خليلاً أو خديناً أو صديقاً لأحد من الناس .

أما عن عجبك من كيفية وصول ما ينظم شوقي إلى أسماع الناس ، في عصر عزت فيه وسائل النشر السريع ، فإني أعود إلى ما سبق أن ذكرته عن منزلة

شوقى فى عصره ، ووقوفه كالمسجل لأحداث التاريخ وعبر الأيام ، فإن شعر شوقى كان من سلاسته وموسيقاه ، ورقة ألفاظه ، تعيه الذاكرة بأقل الجهد وأسرع الوقت ، فن فاته قراءته فإنه لا يعدم أحد حفاظ شعره لسمع منه ما جاءت به ملكته الفريدة فى النظم ومحتواه فى مختلف المرامى الكريمة ، وكانت الندوات الأدبية فى العواصم أكبر عون على هذا الانتشار .

وكان يكفى أن تنشر له صحيفة من صحف الأخبار ، أو مجلة أدبية قصيدة فى شأن من الشئون ، حتى يتهافت عليها الناس ، لتكون سمر المجالس وأنس المتأدين ومادة للتعليق والحفظ والمناقشة .

وكانت الندوات الأدبية وسيلة كافية لنشر نظمهم بين الناس على السنة الحاضرين لهذه الندوات وبصورة لا يقلل من شأنها قصور وسائل النشر . ولعلى أكون بعد ردى على استعلام السائل ، قد بلغت باباً ، نلججه لتعرف منه على الشاعر أحمد شوقى الإنسان بين أسرته . وكيف كان يداعبهم ويحن إليهم حنين الوالد المحب العطوف السخى فى حنانه والمعطاء فى حذبه على هذه العائلة التى كان يرعاها .

لقد أنجب شوقى الشاعر الإنسان ، ابنين وابنة ، هم على التوالى : على ، وأمينة ، وحسين .

وكان ابنه على دمث الخلق متواضعاً ، حياً كوالده ، وعاش عيشة هائلة ، والتحق بعد إنهاء دراساته بخدمة السلك الدبلوماسى الذى بلغ فيه درجة سفير . وقد كانت آخر وظائفه فى هذا السلك ، هى عمله كسفير لمصر فى دولة الفاتيكان بإيطاليا .

عندما بشر شوقي بابنه على ، لم تكن الأحداث وقت ولادته بمستقرة أو
مستتبة ، مما دعاه إلى أن ينظم مداعباً :

صار شوقي أبا على في الزمان التللي
وجناها جناية ليس فيها بأول

وكان على حبه له وعطفه عليه وحنانه الصادر عن قلب شاعر عطوف
إنسان ، يشفق عليه من القادم من أيام لم تكن تسفر عما يخفى في جوفها من
أحداث لا أمن فيها ولا أمان منها .

ونظم في صدد ذلك :

على إذا استشرت أباك قبلاً ! فإن الخير حظ المستشير
إذن لعلمت أنا في غناء وإن نك من لقائك في سرور
وما ضقتنا بمقدمك المفدى ولكن جئت في الزمن الأخير

وقال أيضاً وهو يشير في لمحية ذكية ، إلى أنه لن يكون وريثاً في الشعر لأن
الله سبحانه هو الذي خلق شوقي وحده لهذه المهمة :

ورزقت صاحب عهدى وتم لي النسل بعدى
هم يحسدوني عليه ويغبطوني بسعدى
ولا أرانى ونجلي سنلتنى عند مجد
وسوف يعلم بيتى أنى أنا النسل وحدى

فيا على لا تلمني فما احتقارك قصدى
وأنت منى كروحي وأنت من أنت عندي
فإن أساءك قولي كذب أباك بوعد !

* * *

ونشأ على ، كما تنبأ له والده الكبير أمير الشعراء . فلم يكن يعير الشعر أى اهتمام بل لم يكن يحفظ من كل ما نظمه شوقي الخالد بيتاً واحداً ، أما ابنه حسين وهو أصغر أبناء شوقي ، فقد كان يميل إلى الاطلاع على الأدب الفرنسى والأدب والشعر العربى ، وقد نظم قصيدة قصيرة لحنها الموسيقار عبد الوهاب فى الثلاثينيات وغناها وكان مطلعها :

سهرت منه الليالى ماللغرام ومالى
إن صد عني حبيى فلست عنه بسالى
يطوف بالحب قلبى فراشة لاتبالى

وعندما بدأ جمع قصائد أمير الشعراء أحمد شوقي لطبعها فى أجزاء الشوقيات الأربعة ، قامت دار الكتب المصرية بالإشراف على ذلك الطبع مستعينة فى مراجعتها بكبار أدباء دار الكتب ، وقد اشترك ابنه حسين شوقي فى هذه المراجعة وخاصة فى الجزء الرابع ، كما ألف كتباً عن والده شوقي .

* * *

أما ابنته أمينة فقد كانت قرة عينه ومبعث هنائه ، كما كانت نبعة الصافى الذى يستقى منه أطهر عاطفة أبوية ، وأسعى محبة تربط والدًا بابنته ، وكانت هى

الأثيرة عنده ، فهي الابنة الوحيدة بين ولدين .
ومن عجائب الأقدار أن كانت ولادتها ساعة وفاة والده مما حملة على أن
يقول :

في ليلة سميتها ليلتي لأنها بالناس ما مرت
أذكرها والموت في ذكرها على سبيل البث والعبرة
ليعلم الغافل ما أمسه ما يومه ما منتهى العيشة

إلى أن يقول :

الموت عجلان إلى والدي والوضع مستعص على زوجتي
حتى بدا الصبح فولى أبي وأقبلت بعد العناء ابنتي
فقلت أحكامك حرنا لها يا مخرج الحى من الميت

وكان لا يفتأ يذكرها كلما مر عام من عمرها ليسجل لها شيئاً من نظمه ، فهو
يراها متعة قلبه ومراح نفسه . وراحة عينيه ومقبل هنائه ومبعث وحيه الطاهر
الشفيف .

وكان من فرط ولعه وحبها ، دائم الخوف عليها والرعاية لها والعناية بها .
وعندما أكملت عاماً نظم فيها أبياتاً منها :

أمينتى في عامها الأول مثل الملك
صالحة للحب من كل وللتبرك
كم خفق القلب لها عند البكا والضحك

وكم رعتها العين في السكون والتحرك
فإن مشيت فخاطري يسبقها كالمسك
ألحظها كأنها من بصرى في شرك
فيا جبين السعد لى وياعيون الفلك
ويا بياض العيش في الأيام ذات الخلك
إن الليالى وهى لا تنفك حرب أهلك
لو أنصفتك طفلة لكنت بنت الملك

* * *

ونحن عندما تتمثل بشعر شوقى فى أولاده ، إنما نكشف عن الإنسان فى شوقى ، وعن الوالد العطوف الشغوف بحب أبنائه حباً ملك عليه حياته العاطفية كلها ، وليس من العجيب أن يحب والد أبنائه ، ولكن أن يحب مثل هذا الحب الكبير ، من والد كانت أعباء وظيفته فى القصر ، ومواكبته للأحداث فى أى بلد عربى أو أسيوى يحتاج إلى تهنة أو مواساة ، وانصرافه إلى إدارة أعماله فى مكتبه الخاص فى وسط المدينة كل هذه الأعباء ، وما كان يشغله مما يجرى على الساحة العربية والإسلامية وما يترقب الإنسانية من حروب وأحداث دولية ، فنقول ، إن كل هذه الأعباء لم تصرفه يوماً عن مداعبة أبنائه ونظم ما يراه من الشعر الرقيق الإنسانى التزعة ، والذى تلمس فيه وقد الحب العارم لفلذة الكبد وراحة الفؤاد ، فعند بلوغ أمينة سننها الثانية نظم شوقى فيها هذه الأبيات :

أمينة يا ابنتى الغالية أهنيك بالسنة الثانية

وَأَسْأَلُ أَنْ تَسْلِمَنِي إِلَى السَّيِّئِ وَأَنْ تَقْسِمِي لِأَبَرِ الرَّجَالِ
وَلَكِنْ سَأَلْتُكَ بِالْوَالِدَيْنِ لَكُمْ سَهَرْتُ فِي رِضَاكِ الْجَفُونَ
وَأَنْ تَلْدِي الْأَنْفُسَ الْعَالِيَةَ وَكَمْ قَدْ خَلْتُ مِنْ أَيْكِ الْجُيُوبِ
وَنَاشَدْتُكَ اللَّعِبَ الْعَالِيَةَ وَكَمْ قَدْ مَرَضْتُ فَأَسْقَمْتَهُ
وَأَنْتِ عَلَى غَضَبٍ غَافِيَةٍ وَيُضْحِكُ إِنْ جِئْتَهُ تَضْحَكِينَ
وَلَيْسَتْ جُيُوبُكَ بِالْخَالِيَةِ فُلُو حَسَدْتُ مَهْجَةً وَلَدَهَا
وَقَدْ فَكَنْتُ لَهُ شَافِيَةً وَيَبْكِي إِذَا جِئْتَهُ بَاكِيًا
حَسَدْتُكَ يَا طِفْلَةَ لَاهِيَةٍ

أحد الحاضرين :

نحن نعلم أن الشاعر الإنسان شوقى نظم مسرحيات شعرية كثيرة ، وهو جهد لا يستشعره إلا من جاس خلال هذه المسرحيات مثل مصرع كيلوباترا ، ومجنون ليلى ، وقبيز ، وعلى بك الكبير ، والسيدة هدى وغيرها ، فهل هو فى اختياره مواضيع هذه المسرحيات ، كان ملتزما بالروح الإنسانية التى سرت فى كل نظمه وفى كل ما كان يحرك بين جنبيه طرح ما ينظم ؟

الدكتور المحاضر :

كان شوقى من الرعيل الأول من شعرائنا فى نظم المسرحية الشعرية ، وإليه يرجع الفضل فى قيام المسرح الشعرى من كبوته ، بعد محاولات فى مسرحيات

شعرية مترجمة كشهداء الغرام ، وكانت مسرحية غنائية ، كان الشيخ سلامة حجازى صاحب الدور الأول فيها .

وعندما أحس شوقى أن دوره كمسجل لأحداث الشرق ومصر بصورة خاصة ، وكمؤرخ لتاريخ مصر منذ العهد الفرعونى حتى العهد الذى عاشه ، وجد أن لديه طاقة تعينه على نظم مسرحيات شعرية ، وراح يقرأ المراجع الكثيرة وما كتب عن قصص كليوباترا ، أو المجنون ، أو قبيز . بل ذهب فى هذا الشوط إلى حد أنه أقام فى داره (كرمة ابن هانى) مسرحاً صغيراً (ما كيت) كان يستعين به وهو ينظم ، على تخيل مواقف أبطال المسرحية ، استجلاباً للواقعية ..

وقد فتح الباب بذلك أمام الشاعر الكبير عزيز أباظة الذى ولج هذا الباب من بعده ، وأحسن وأجاد فيما قدم من مسرحيات شعرية عديدة . وكان شوقى كما تفضل السائل ينفث الروح فى القصص التاريخية التى أخضعها للنظم العربى والموسيقى والشعر العربى ، وللمواقف الدرامية الإنسانية التى وقف نفسه على لباسها الوشى الجميل والديباجة القوية النسيج ، والنغم الشعرى المصفى الذى يعبر عن المواقف التى ابتدعها ، وجرت سلسيلاً عذب الحرير .

وقد اختار الموسيقار محمد عبد الوهاب مشهدين من مسرحيتين عكف على تلحينهما تلحيناً كتب له الخلود ، واستحق عليه من جمهوره أجزل الإعجاب . استمع إليه فى كليوباترا وهو يغنى فى دور أنطونيو :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ما لروحينا عن الحب غنى

رجعت عن شجوها الريح الحنون وبعينينا بكى المزن الهتون
وبعثنا من نفاثات الشجون في حواشى الليل برقاً وسنا

* * *

غردى يا طير واشهد يا وتر وارو يا ليل وحدث يا سحر
كم جنينا من ربا الأنس الصفا ورشفنا من مجانيها المني
نحن قربنا له مُلكَ الثرى ولقينا الموت فيه هيناً
هو أعطى الحب تاجى قيصر لم لا أعطى الهوى تاجى منا

* * *

هذا الموقف التاريخى الغنائى التمثيلى ، يجمع كل ما فى الأوبرا أو الأوبريت
من تمثيل وأداء وصوت وتعبير موسيقى بارع ذكى ، يشهد للملحن بالنبوغ
والاقتدار ، إلى جانب المواقف التى ترخر بالإنسانية مجسمة فى الوفاء حتى
الموت ، بين الحبيبين العاشقين كليوباترا ومارك أنطونيو ، وكان النظم الدقيق
الرقيق خير عون للملحن ، وأبهر ضوء كشف عن المواقف وخلجات نفوس
أبطال المسرحية التى امتلأت مواقفها بالوفاء والتفانى .

وعندما تناول الموسيقىار مشهداً من مسرحية مجنون ليلي ، حشد فى الموقف
مشاعر إنسانية كان شوقى قد أدار بقدرته الفائقة ، حوارها الذى بعث فيها
الحياة ، حتى بات ما تراه ، ملموساً محسوساً منذ أن أودعه حشاشة نفسه وحنين
قلبه ، مما أعان عبد الوهاب على أن يخلع بموسيقاه على هذا المشهد أرق
الأنغام ، وأشجى الموسيقى ، فى حوار لا يصدر إلا عن حبيبين ذاقا مرارة
الحرمان .

وهكذا ترجم شوقي بشعره الفريد خلجات النفوس وخفقات القلوب في صورة تبعث الشفقة وتستدر الرحمة بالعاشقين ، المجنون وليلاه .
اسمعه في هذا الحوار الحى :

قيس :	ليلي	يجاني	كل شىء إذا حضر
ليلي :	جمعتنا	فأحسن	ساعة تفضل العمر
قيس :	أتجددني ؟		ليلي : ما فؤادي حديد ولا حجر
ليلي :	لك قلب	فسله	يا قيس ينبئك بالخبر
قيس :	قد تحملت	في الهوى	فوق ما يحمل البشر
ليلي :	نبئتني	قيس ما الذى	لك في اليد من وطر
أترى	قد نسيتنا	وعشقت	المها الآخر
قيس :	غرئت ليلي	من المها	والمها منك لم تغر

هذا الحوار المتقدم بجملة الحب العذرى ، تكاد شرارته تتصل بقلب كل مستمع له ، في غناء يحمل الآذان والجوارح إلى دنيا ذلك الموقف العذرى العفيف .

وهذان المشهدان من المشاهد العديدة التى زخرت بها المسرحيتان يظهران بالبرهان الحى المرئى والمسموع ، قدرة شوقي الخارقة فى النظم المسرحى الذى كان مسرحنا العربى فى حاجة إليه وفى ظمأ إلى نظم العذب النثير .

* * *

والذى أود أن أصل إليه وأنا بسبيل كشف الغطاء عن مكونات شعر شوقي

في كل باب طرقه ، كان ذلك في الشئون السياسية ، أو الوطنيات أو المآسى أو الإخوانيات أو المراثى أو الأغاني ، أو المسرحيات أو المداعبات التي تثير ضحكك حتى من قبلت فيه ، أقول : إن ما أود أن أصل إليه من وراء ذلك كله ، هو تفرد شوقي الشاعر الإنسان ، الذي كانت الإنسانية تتسلل وتترقق في كل أغراض الشعر التي تناولها بذهن وقاد ونظم لا يجاريه فيه شاعر في أى عصر من العصور ، وكانت أدواته الشعرية خير عون له في الوصول إلى القلوب والسرائر . وهذه الوظيفة في النظم تختلف عن وظيفة النثر ، بما تحمله في ثناياها من موسيقى وإيقاعات وجرس وإثارة ، تشعل الانفعال ، وهو بهذا النظم الإنسانى في مختلف المجالات ، قد بلغ أعلى الذرى ، على وسادة مخملية لها خفيف ولها نغم ولها كل ما يبعث على العجب والإعجاب .

* * *

ومن المواقف الإنسانية البارزة ، تلك التي ساقتها الأقدار في أحكامها الجازمة ، لتضع أمير الشعراء في موقف يتعين عليه فيه أن يتخذ قراراً يتوسط العاطفة والحنان ، والواجب والواقع .

في عام ١٩٢٧ كان الموسيقار محمد عبد الوهاب يصطاف مع أمير الشعراء في جبل لبنان ، وفي بلدة زحلة التي كان يؤثرها وتهفو نفسه إليها . وفي أحد أيام شهر يولية من هذا العام ، وردت برقية لعبد الوهاب من شقيقه الأكبر الشيخ حسن عبد الوهاب ينعى له فيها والدهما .

وكان عبد الوهاب قد اتفق قبل ذلك بعدة أيام مع متعهد ممن يقيمون حفلات الشهر لإقامة حفل أعد له العدة وأراد أن يكون تاجاً لكل حفلات

الطرب والسمر ، حيث سيكون صدام الحفل هو الموسيقىار محمد عبد الوهاب ، كما سيتيح بذلك لعشاق فنه من الدول العربية المجاورة ومن أهالى لبنان . أن يروه ويسمعوه فى وقت سبق السينما العربية والإذاعة والتلفزيون والتسجيلات .

وتم طبع الإعلانات والتذاكر التى أقبل عليها الراغبون المتشوقون لهذه الفرصة إقبالا فريداً ، وقد وافق موعد هذا الحفل الساهر ، يوم وصول برقية شقيق عبد الوهاب الذى نعى إليه فيها والده . أى ، « فرح هنا وهناك قام المأتم » .

أطلع عبد الوهاب أمير الشعراء على البرقية ، ونقل إليه عزمه على السفر إلى القاهرة ، ولم تكن الطائرات آنذاك تنقل الركاب والمسافرين بل كانت مقصورة على الحرب . ومعنى ذلك أنه سيصل عن طريق البحر فى يومين على الأقل هذا إن وجد مكاناً ، وكانت هناك باخرة ستبحر فى هذا اليوم .

وجد شوقى أن عبد الوهاب بين عاطفة البنوة الوفية ، والواجب الذى يزعزع الثقة بالفنان إذا هو أحل بما تعاقد عليه . فى موقف يستحق التدبير والفكر .

وقال له بعد عزائه إن الأمر يحمله مرجعه إليك ، ولا بأس من أن تسافر كما قررت ، ولكن كنت قد وعدت الدكتور طه حسين أن نقوم بزيارته اليوم ، رداً على زيارته لنا عندما وصلنا من مصر ، وطابت نفسه عندما علم أنك ستكون مصاحبى فى هذه الزيارة لبلدة (بكفيا) حيث يصطاف الدكتور قبل سفره إلى أوروبا . فلا أقل من أن نقوم بهذا الواجب قبل رحيلك .

وافق عبد الوهاب ولم يبد أى اعتراض ، واستقلا سيارة إلى (بكفيا) ولما
ضمهم مجلس عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، بادر شوقى بإبلاغ
الدكتور طه حسين مصاب عبد الوهاب ، فقام الدكتور طه حسين بتقديم عزائه
ومواساته ولما جاء ذكر عزمه على السفر برغم ارتباطه الذى كان قد علم به دكتور
طه حسين وأنه بسفره سوف يتخلف عنه ، بعد أن تم كل الإعداد لهذا الحفل
الكبير ، الذى ينتظره عشاق فنه ، قال له وهو يستمد من حكمة الإغريق ،
المنطق والحجة والأمر الواقع والإقناع ، مما يتلخص فى هذا المشهد الحوارى ،
بمناه قبل معناه :

دكتور طه حسين : يا محمد يا ابنى ، ما حدث كان لابد أن يحدث ، وهذا
قدرنا ولن يعوضك سفرك شيئاً من فقد والدك الكريم ، فأنت ستصل بعد أن
تكون مراسم تشييع الجنازة وما يتبعها قد تمت ، وارتباطك هنا يلزمك كفنان
أصيل أن يضع فى اعتباره ما له وما عليه ، والفنان أسير فنه . والأحداث تجري
إلى مستقر لها ولا بد مما قدر أن يكون .

وهنا قال شوقى مخاطباً دكتور طه حسين : لعلك يا دكتور إذا رويت لمحمد
ما حدث لعبده الحامولى يوم زواج ابنه محمود ، يقتنع بأن الفنان لا يقعد به أى
حدث لأنه يتميز عن باقى ما خلق الله ، بما أودعه فيه من فن عليه دفع الضريبة
عنه من أعصابه ومن احتماله ومن الرضا بأحكام القدر ، لأنه يحمل رسالة هر
مكلف بأدائها .

فقال دكتور طه حسين ، إن موقف عبده الحامولى عند وفاة وحيدة ليلة

عرسه ، يبدو بالنسبة لمصاب محمد شيئاً يعتصر القلب ويثير العجب في قوة الاحتمال .

فقد كان عبده الحامولى يحتفل بزواج ابنه محمود في يوم معلوم ، وقد أقيم حفل في الدار للسيدات ، كما أقيم على مبعدة من الدار سرادق للرجال . وقد شاء عبده أن يسعد المحتفلين معه بزواج وحيدة ، بليلة من ليالى العمر ، يغنى فيها دوراً كان يناسب هذه الفرحة واستعد التخت للعزف بعد أن ضبط إيقاعاته ، وكان الدور على ما أذكر :

يا واصل شرف يا جفا روح عنا خلى الحبايب بالحياة تنهنا
وقبل أن يبدأ الغناء ، جاء من الدار خادم أسر في أذن عبده الحامولى بأن
ابنه العريس محمود أصيب بهبوط مفاجئ في القلب وتوفى في الحال وهو جالس
إلى جوار عروسه .

فطلب عبده من الخادم أن يعود ، وبأمر منه لصاحبة الدار ، بأن لا يرتفع
صوت بالبكاء والنحيب من السيدات حتى ينفض الحفل المقام في السرادق ،
ثم طلب من أفراد التخت تعديل ما سبق الاتفاق عليه من مقامات موسيقية
وأمدّه الله من وحى المأساة المباغته بنظم بسيط ينم عن شعوره ووجدانه وكانت
كلماته .

الصبر محمود لمثلّى على حبىي وبعده
والنار فى القلب ترعى والرب يلطف بعبده

ولدى يا كبدى يا نور العين كبدى يا ولدى بياض العين

واسترسل فى هذا الغناء الحزين مع ترديده على مختلف الايقاعات ، حتى أبكى الكثيرين ممن حضروا ولم يفهموا سر اختيار الحامولى فى ليلة عرس ولده هذا الكلام المبكى ، وبقى على هذا الحال حتى ساعة انصراف مدعويه ، ووقف عند باب السرادق وهو يشكرهم على حضورهم لمواساته فى موت ولده ، وبهذا زال عجبهم وراحوا يعزونه فى هذا المصاب الذى يهز أى قلب مهما اقتدر احتمال له لمثل هذه الفجعة ، وبكى منهم كثيرون .

ذكر دكتور طه حسين هذه القصة لمحمد عبد الوهاب ثم أردف قائلا ما مفاده ، إن الفنان هو الذى يواجه كل الأحداث مهما بلغت أحجامها ، ويتفاوت الفنانون فى ذلك على قدر مواهبهم ، وأنت ملء العين والسمع وانتشر صيتك بين المعجبين بك ، ولا أود لك أن يهتر قدرك عندهم إن تركتهم وسافرت .

والفنان كالربان الماهر الذى لا ينتظر أن يصادفه فى رحلته نسيم وريح رخاء ، بل لابد أن يحسب حساب العواطف والأنواء ، وعليك الآن أن تواجه بكل شجاعة وتضحية وإيمان ، ما وقع لك من مصاب أليم ، متخذاً فى الاعتبار ، وكأسوة لك ما صادف عبده الحامولى من مصاب وهو فى ذروة ساعات فرحه . ولن يفيدك سفرك شيئاً ، والحزن يكمن فى القلب والعبرة فى الأحزان بما هو مستور منها لا بما هو معلن .

ما زال دكتور طه حسين بعبد الوهاب حتى اقتنع وألغى فكرة سفره - ثم

عمد إلى أن يكتم الخبر عن متعهد الحفل وعن كل من كانوا حوله وعن كان سيحضر الحفل ، خاصة وأن الصحف القاهرية كانت تصل بعد يومين من يوم صدورها حيث يتم تسليمها أولاً في بيروت ثم تنقل إلى مصايف الجبل بالسيارات .

واستأذن عبد الوهاب من أمير الشعراء في أن ينظم له أغنية لكلماتها وقع يتفق مع هذا المصائب الذي ألم به ، حتى يفعل بها ويتنقل إحساسه إلى جمهور المستمعين ، وسرعان ما استجاب شوقي إلى رجاء عبد الوهاب الكسير القلب ، وراح ينظم أغنية ، عكف عبد الوهاب بعد أن استوعب معانيها إلى تلحينها تلحيناً يبعث النوح والشجي والطرب معاً .

وكان مطلع الأغنية :

الليل بدموعه جاني يا حامي نوح وبياه
نوح واشرح أشجاني ده جواك من جنس جوايه

* * *

أخفى عبد الوهاب كل أوجاعه وبدا طبيعياً وجلس ليغنى مثلما هو معتاد ، دون أن يعلم أحد بما يخفيه بين جوانحه ، وتوفر له أن ينقل أحاسيسه الجريحة إلى المستمعين الذين طربوا طرباً شابه شيء كبير من الحيرة من أمر هذا الأسى الذي يتخلل غناء عبد الوهاب ، وهذا الوجوم الذي مهما استطاع أن يخفيه إلا أنه يفلت منه في الحين بعد الحين ، حتى انتهت السهرة بين إعجاب وتعجب ، وإن كان الجمهور قد أسعده أن يرى وأن يسمع مطربه الأثير .

وكان دور أمير الشعراء في هذه القصة ، دور الإنسان الذي يزخر قلبه
ووجدانه بأسمى مشاعر المواساة وأرق وسائل الإرشاد والتوجيه لفنان يرعاه ويأمل
له مستقبلا كان يرى تباشيره بعين بصيرة واعية ، وكان يخشى عليه أن تهتز
مقاييسه وقدره عند محبيه إن هو تخلف عنهم .

* * *

كان شوقي في مراثيه وفي إخوانياته بصورة عامة ، فريد زمانه بين الشعراء في
العالم العربي .

وكان إذا رثى راحلا ، يستجمع في إنسانيته من أحاسيس نبيلة ومشاعر
تنحسس مواقع الخسارة في الفقيد الراحل ، وتروح تعدد مزاياه ومناقبه حتى
لكأنه يحاول أن يرسم تمثالا للراحل بالنظم ليحل محل فقدانه ، بمماته ، وصفاته
خلال الحياة .

اقرأ في مراثيه للشيخ سلامة حجازي :

يا ترى النيل في نواحيك طير	كان دنيا وكان فرحة جيل
لم يزل يتزل الخمائل حتى	حل في ربوة على سلسيل
أقعد الروض في الحياة ملياً	وأقام الرى بسحر الهديل
مالواء الغناء في دولة الفد	من إليك اتجهت بالإكيل
عبقرياً كأنه زئبق الخلد	مد على فرعه السرى الأسيل
أين من مسمع الزمان أغاد	ى عليهن روعة التمثيل
أين صوت كأنه رنة البلب	ل في الناعم الوريث الظليل

فيه من نعمة المزامير معنى وعليه قداسة الترتيل
كلما رن في المسارح « إن كنتُ » أنشئ بالهتاف والتهليل
كعتاب الحبيب في أذن الصب وهمس النديم حول الشمول

ويقصد شوقي « إن كنت » قصيدته في رواية شهداء الغرام (إن كنت في
الجيش أدعى صاحب العلم) .

* * *

أما في مداعباته وفي إخوانياته فهو نسيج وحده ، وهو المتميز برقة الحس
وعذوبة الكلمة وظرف النكتة والمهذب من المجون الراق .

قال يعاين صديقه الشاعر خليل مطران ، الذي كان مقتراً عليه في الرزق ،
وقد بلغه أنه ربح ربحاً في أوراق (يا نصيب) فبعث إليه بهذا النظم :

لقد وافتنى البشرى	ونبتت بما سرا
وقالوا عنك في أمس	ربحت الثرة الكبرى
فيا مطران ما أولى	ويا مطران ما أخرى
لقد أقبلت الدنيا	فلا تجزع على الأخرى
أخذت الصفر باليمنى	وكان الصفر باليسرى
وكانت فضة بيضا	فصارت ذهباً صفرا
وقال البعض ألفين	وقالوا فوق ذا قدرا

* * *

وانظر إلى إنسانيته وأبوته العارمة ، عندما وصف تشبث طفليه على وحسين
به عند خروجه ليمنعاه من الخروج :

بكيا لأجل خروجه في زورة ياليت شعري كيف يوم فراقه
لو كان يسمع يوم ذاك بكاهما ردت إليه الروح من إشفاقه

* * *

وله في مجال المجنون المذهب الفريد ، أسلوب لم يسبقه إليه شاعر . إنه
يرتقى ، حتى في هذه المداعبات التي كان ينظمها ، إلى مستوى الشعر الجاد الملتزم
بكل خصائصه ولزومياته ، ويبدع فيه ما شاء الله له الإبداع كأنما هو ينظم في
أنبل غاية وأهم قصد ، وتلك صفة تلازم العباقرة الذين لا يستطيعون حتى وإن
أرادوا ، أن يتخلوا عن بعض التزاماتهم التي تقيدوا بها وانقادوا لها .
حدث خلال زيارة له لإستانبول ، في عهد السلطان عبد الحميد ، أن
لاحظ ما كان عليه (كوبري جلطه) الذي يربط إستانبول القديمة وإستانبول
الحديثة ، من وهن لحقه من فرط ما يحمله من كافة أنواع المواصلات ، فوق
السنين العديدة التي قصمت ظهره ، وصار يئن من وقعها ، دون ما اهتمام من
المسئول عن هذا الشريان الحيوي وإدخال ما يطمئن النفوس العابرة فوقه ،
خاصة أنه كان الكوبري الوحيد القائم ، وليس هناك من طريق للعبور سواه ،
فما كان من شوق إلا أن نظم قصيدة وجه القول فيها للسلطان عبد الحميد جاء
فيها :

أمير المؤمنين رأيت جسراً أمر على الصراط ولا عليه

له خشب يجوع السوس فيه وتمضي الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه سوى مر الفطم بساعديه
ويعشى (الصدر) فيه كل يوم بموكبه السنى وحارسه
ولكن لا يمر عليه إلا كما مرت يداه بعارضيه
ومن عجب هو الجسر المعلق على البوسفور يجمع شاطئيه

أى أن رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) يمر عليه ولا يلتقى بالآلما وصل إليه
الحال .

ومن مداعباته أيضاً ما كان يجرى بينه وبين الدكتور محجوب ثابت الذى
كان من جلسائه ومن المقربين إليه ومن يرتاح إلى مجلسه الذى يحتشد بكل أنواع
الأحاديث من سياسة إلى اقتصاد إلى أدب إلى تاريخ .
وكان للدكتور محجوب ثابت عربة يجرها حصان هزيل ، يمر بها على أحياء
القاهرة أيام ثورة ١٩١٩ . وكان أصدقاء الدكتور قد أطلقوا على حصانه تندرأ ،
اسم (مكسوينى) وهو اسم بطل أيرلندى مشهور انتحر بالانقطاع عن الطعام
حتى مات جوعاً ، فى سبيل تحرير وطنه .

وحدث أن استبدل دكتور محجوب عربته هذه بسيارة ماركة (أوفرلاند)
الأمر الذى أوحى إلى شوقى بقصيدة يداعب فيها صديقه محجوب ، ويحاول أن
يحمل العزاء للحصان الوفى باكياً على ضياع الوفاء فى الناس وفى هذه القصيدة
قال شوقى :

لكم فى الخط سياره حديث الجار والجاره

إذا حركتها مالت على الجنين مناره
وقد نخزن أحياناً وتمشى وحدها تاره
ولا تشبعها عين من البنزين فواره
ولا تروى من الزيت وإن عامت به الفاره
ترى الشارع في دعر إذا لاحت من الحاره
وصبياناً يضحون كما يلقون طياره
وفي مقدمها بوق وفي المؤخر زماره
فقد تمشى متى شاءت وقد ترجع مختاره
قضى الله على السوا ق أن يجعلها داره

* * *

أدنيا الخيل يا (مكسى) كدنيا الناس غداره
لقد بدلك الدهر من الإقبال إدباره
فصبراً يافى الخيل فنفس الحر صباره

وكان شوقى من المقدرين للدكتور محبوب مواقفه الوطنية وعطفه على
الفقراء حيث لم يكن يعالجهم بأى أجر.

* * *

هذه لمحات عن نفس شاعر إنسان ، لم يكن يرى الناس ناساً ، بل أرواحاً
تطوى صدورها على الخير والمحبة والإنسانية ، ولم يكن يرى الأشجار أشجاراً ،
بل عرائس وراقصات تكشف عن نهورهن ويسترن سيقانهن ولم يكن يرى

الأحجار أحجاراً ، بل كان يراها مخلوقات تسرى بين جنوبها نسيمات الحياة
وخصائص الإنسان في فرح يهش له ، أو جرح يخشاه ، كما رأيناه وهو يصف
الساقية التي طال أنينها حتى لم يبق منها إلا الضلوع من فرط نحولها ، أو وهو
يصف بقايا قصر أنس الوجود ، أو وهو يصف أشجار الحور الكاسيات
العاريات كراقصات الليل في لباسهن الذي يخفى ما يشاء ويظهر ما يريد أو
ما يريده المشاهدون .

كان شوقي في كل ما ينظم إنساناً يحب الإنسانية ، على أى حال كانت
عليه ، فهو يخف إلى التهتهة في موضعها ، ويهرع إلى الرثاء في حينه ، ويمسح عن
اليتيم عبراته ، ويكفكف دموع الشعوب المظلومة المقهورة ، التي يطلب لها
التحرر والسيادة ، بعد قهر واستبداد .

ولم تكن تكفيه ظواهر الأشياء ، ولا يقف عند البادى من الأمور ، بل
نجدته يتغلغل في حشايا النفس البشرية ، يستخلص منها ما تطوى عليه
الصدر ، ليدفع بصاحبها الإنسان ، إلى ما يجب أن يكون عليه الإنسان ، كما
أراد الله أن يكون .

ونكتفي اليوم بهذا القدر ، لنستكمل في الأسبوع القادم وفي نفس المكان
والزمان ، ما لم نتطرق إليه من جوانب شوقي الإنسانية في هذه المحاضرة .

* * *

المنظر الثاني :

يجلس المحاضر وأمامه المنصة التي تحمل أوراق محاضراته ، يروح يجيل النظر في جمهور الوافدين . محيياً بهزة مهذبة من رأسه . وقد سرت في أساريه أمارات الارتياح لكثرة عدد المترددين ، الذين ربما حثهم على الحضور ما سمعوه عن المحاضرة السابقة ، فشاءوا أن يلحقوا بما تبقى من هذا الموضوع الشيق المؤنس . .

سادتي : نستكمل ما بدأناه من تحليل وعرض وسرد ، لما ضمته نفس الشاعر الإنسان أحمد شوقي من مشاعر وأحاسيس ، تتبع بغزارة من إنسانيته التي تسرى في جوانبه سريان الهواء في كل مكان .

وقد رأيت في هذا الجزء الثاني من المحاضرة ، أن أقسمه إلى أبواب ثمانية ، أرجو أن أكون قد وفقت في جمعها . لتشمل كل ما أحاط بشوقي من أحداث . أو ما جاشت به نفسه من مشاعر رقيقة دفاقة مشجية .

البَابُ الأولُ

شوقى الإنسان فى مديحه وراثته

برغم ما بلغه شوقى من رفعة شأن فى باب الشعر الذى حمل معظم شعراء عصره على مبايعته أميراً عليهم ، فإن أقلاماً كثيرة كانت تناوشه وترقب له سقطة هنا أو هفوة هناك ، لتشرع أسلحتها الحادة فى سبيل الانتقاص والتعريض لهذا الصرح الشامخ الفريد .

وشوقى برغم كل ما آتاه الله من عبقرية فذة . رفعته على من سبقه وعلى من أتى من بعده من الشعراء فإنه كان يتأذى غاية الأذى من نقد شعره . وليته كان يغمض عينيه عن ذلك . فإن من شأن النفوس الحاقدة أن تنفس على من حباه الله بكل هذه النعم . ويتعالى عن أن يدخل معها فى سجال أو جدال .

وكان شوقى يضيق وينفذ صبره فن كانوا يعيرون عليه كثرة رثائه أو مديحه أو تهائنه . وكيف يصح فى الأذهان ، أن شخصية فى مثل مقام شوقى ، عاصرت وعاشت وصادقت الملوك والقادة وذوى الجاه والمفكرين والكتاب والمحترعين والشعراء والعظماء فى كل فن ، ممن اختصهم الله بقدرات تميزهم على سائر

البشر ، أن يسكت إن صادف أحدهم نجاح يستأهل التهنئة ، أو ألم بأحدهم مكروه يتزعج من أجله قلب شوق الرهيف ، نقول كيف يسكت عن النظم مهنتاً أو مواسياً أو مادحاً عملاً جليلاً نبيلاً ، عندما ينتهى إلى علمه أبناء هؤلاء ممن أحبهم من عثراته ومن اختصهم بحبه ، إذا ما حرمه الزمن من رقيق وفائهم ورقيق معشرهم إذا ما فارقوا الحياة ، إن سكوتهم عن ذلك هو العجب وهو العقوق الذى يستحق أن يؤخذ عليه ، وأن يكون موضع النقد والتجريح ، لا أن يكون موضعاً للطعن والانتقاص نقول ، كان كثير من النقاد ، يتلمسون مثل هذه التهانى أو الرثاء ليبدأوا هجومهم . وكان شوق يضيق ذرعاً بمن يعيرون عليه كثرة رثائه وتهانته وكان من حقه أن يتبرم ويتذمر من هؤلاء الذين لم يرضوا عنه إن هو رثى أو يرتضوا قيامه بتهنئة أو مديح .

وكان فى هذا الموضع ، ينطق بحكمة الفلاسفة ، ومنطق المناطقة ، عندما يقول ، إنه إذا كان يعاب على مديحه للعظماء ، ارتقاباً لرفدهم ، وترلفاً لجاههم عسى أن يلحقه من وراء ذلك نفع أو فائدة ، فما الذى يناله ممن ارتحل وترك الدنيا وما فيها ومن عليها . ثم يردف ذلك بقوله : إن من لا يبق للموتى ، لا يبق للأحياء . ثم ينظم شعراً فى الرد عليهم ، منه :

يقولون يرثى الراحلين فويحهم أأملت عند الراحلين الجوازيما
أبوا حسداً أن أجعل الحى أسوة لهم ومثالا قد يصادف حاذيا
ولكنهم عادوا من طريق آخر يقولون ، عندما رثى سعيد زغلول ابن أخت
الزعيم سعد زغلول ، إنه إنما رثاه تملقاً وزلفى لسعد . ولكنه لم يسكت على هذه
الفرية والاتهام الجديد ، لأنه كان يصدر فى ذلك عن حب وتقدير وتأيد للزعيم

سعد زغلول ، ودفعه هذا النقد الذى جانب الحق والذوق والعدل إلى أن يقول
فى قصيدة يرد على شائيه بقوله :

وأنا المرء لم أر الحق إلا كنت من حزبه ومن عماله
رب حرٌّ صنعت فيه ثناء عجز الناطقون عن تمثاله

وكانت تهانى ومراثى شوقى ، لا تخلو من الحكمة ومن الموعظة ومن الوفاء
ومن البلاغة ومن الرقة النابعة من شعور فياض بالمحبة والتقدير والتفديس للموت
الذى هو آية الله العزيز الحكيم الذى لا غالب له .

كان من أحبائه ومن جلسائه المخلصين ومن أهل الأدب والفن والتعمق فى
فن الموسيقى والغناء ، المرحوم حسن بك أنور ، أحد الأعضاء المؤسسين لنادى
الموسيقى الشرقى . وقد توفى عام ١٩٣٠ . وكان متخصصاً فى الموشحات
والتراث .

حزن عليه شوقى حزناً بارحاً ، فقد كان سميره وأنيسه وجليسه . ولما بلغه نبأ
وفاته كان حزنه عليه حزناً مشوباً بالحسرة على ذهاب أمثاله ممن يرجى على يديهم
الخير والنفع .

وقال فى رثائه :

تسائلنى (كرمى)^(١) بالنهار وبالليل : أين سميرى (حسين) ؟
وأين النديم الشهى الحديث وأين الطروب اللطيف الأذن

(١) (كرمى) يقصد بها داره التى أطلق عليها اسم (كرمة ابن هانى) .

نجى البلايل فى عشها وملهمها صبية فى الفن
فقلت لها مات واستشعرت لىالى السرور عليه الحزن
وما هو ميت ولكنه بشاشة دهر محاما الزمن
ومعنى خلا القول من لفظه وحلم تطاير عنه الوسن

* * *

وعندما بلغه نبأ رحيل الزعيم سعد زغلول ، عام ١٩٢٧ وفى شهر أغسطس
من ذلك العام ، كان شوقى رحمه الله بصطاف فى (زحلة) بجبل لبنان وهى
التي نظم فيها قصيدة « يا جارة الوادى » التي شدا بها الموسيقار محمد
عبد الوهاب .

وكان سعد رحمه الله يعانى من مرض الحمرة ، وكانت وفاته متوقعة ،
وكان المصطفون فى هذه المدينة ، وكنت وعائلى من بينهم ، ننتظر صحف مصر
التي تصل فى اليوم التالى من صدورها . ولم تكن هناك من إذاعة أو تيلكس ،
وفى اليوم الذى حدث فيه الوفاة ، كنا وجوماً وكان شوقى يذرع (تيراس)
الفندق فى عصبية ، حيث كان قد علم من أحد القادمين من مصر ضعف الأمل
فى شفاء سعد ، وانتشر الخبر بيننا ، وفى اليوم التالى وردت الصحف وفيها النبأ
الآليم ولم تمض أيام حتى بعث شوقى إلى صحيفة الأهرام برثاء سعد فى قصيدة
تعد من درر ما نظم فى الرثاء ، كان مطلعها :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاهها
ليتنى فى الركب لما أفلت (يوشع) همت فنادى فثناها
جلل الصبح سواداً يومها فكأن الأرض لم تخلع دجاها

ثم يمضى ليقول :

سائلوا (زحلة) من أعراسها^(١)
عطل المصطاف من سماره
فتح الأبواب ليلا (ديرها)
يحمل الأنباء تسرى موهناً
عرض الشك لها فاضطربت
قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم
هل مشى الناعى عليها فحاحا
وجلا عن ضفة الوادى دماها
وإلى (الناقوس) قامت بيعتها
كعوادى الشكل فى حر سراها
تطأ الأذان همساً والشفاه
كل نفس فى ورديها^(٢) رداها

(١) عرائسها .

(٢) أى فى شريانيتها .

الباب الثاني

شوق الإنسان في شواحه الدينية

إن من يتمعن في شعر شوقي في النبويات أو المناسبات الدينية المنبثة في أجزاء الشوقيات ، يلمس أول ما يلمس شعراً علوياً نابضاً بالإيمان العميق ، ونظماً نابغاً من نفس قد تجردت من مباهج الحياة . واتجهت بكل أحاسيسها إلى ما وقف نفسه على الاسترسال فيه كروح ترف في شفافية ونقاء وصفاء حول ما هو بسيله من نظم في شأن الدعوة لقداسة الأديان وطهارة طريقها السوى . لقد نظم في النبويات قصائد ثلاث هي : « سلوا قلبي ، وريم على القاع ، وولد الهدى » بخلاف ما أشاد فيه بنظمه ، بالرسائل السماوية جميعاً .

شدت الراحلة الكريمة السيدة أم كلثوم بالنبويات ، بعد أن قام بتلحينها تلحيناً كتب لها الخلود ، الموسيقار رياض السنباطي ، بحيث أصبحت ، برغم ما احتوت عليه من ألفاظ لا يرقى إلى فهم معانيها ، إلا من نال قسطاً من الثقافة الشعرية والدينية ، فإن سلاسة النظم وموسيقى النظم وعذوبة الأداء الصادق الخاشع ، قد أعانت كل من استمع إليها على التغلغل فيما حوته وضمتته من معانٍ علوية قدسية ، رفيعة البناء ، جليلة المعنى . وكان المستمع من فرط انجذابه

للإحاطة بكل معنى شد حواسه ، ومضي لمن يأنس فيهم المعرفة ، ليقف منهم
على ما دق على فهمه من معان ومقاصد ، ليزداد استمتاعاً بما أطربه وشجاه
تعالوا نقف عند أبيات من قصيدة (ذكرى المولد) التي كان مطلعها :

سلوا قلبي غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

فقد سلك فيها شوق مسلك قدامى الشعراء العرب الذين كانوا يبدأون
قصائدهم بالنسيب المصطنع ، ثم يدلفون إلى موضوع قصائدهم ، غير أن شوقي
في هذه القصيدة ، شأنه في غيرها مما نظم في المناسبات الدينية ، يبدأ بنسيب
يلذ للأذن الإنصات له ، ويطيب للنفس التغنى به من فرط ما حواه من غزل
شف ورق وسما سماً يتناسب وما سوف يتلوه من مقاصد دينية انبرى للكشف
عنها :

ولى بين الضلوع دم ولحم هما الواهى الذى ثكل الشبابا
تسرب فى الدموع فقلت ولى وضيع فى الضلوع فقلت ثابا
ولو خلقت قلوب من حديد لما حملت كما حمل العذابا

ثم انظروه وهو يقول قول الحكماء :

وكان بساط عيش سوف يطوى وإن طال الزمان به وطابا
كأن القلب بعدهم غريب إذا عادته ذكرى الأهل ذابا
ولا ينسبك عن خلق الليالى كمن فقد الأحبة والصحابا

في هذا البيت الأخير لفظة إنسانية ، لا تصدر إلا عن امتلاء قلبه بالأسى

والشجى والوفاء ، وعرف غدر الزمان والأيام ، وفاض به الإيمان بما قسمه له
الله فهذه مشيئته ، ثم يمضى ليقول :

وأرسل عائلا منكم يتبا دنا من ذى الجلال فكان قابا
نبي البر بينه سبيلا وسن خلاله وهدى الشعابا
وكان بيانه للهدى سبلا وكانت خيله للحق غابا
وعلمنا بناء المجد • حتى أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا

أقول ، إن من يعمق الفكر فى محتوى هذا النظم من بدايته إلى منتهاه ، يلتقى
بإنسان تفيض روحه بمحبة الإنسانية ومحبة البشر والحث على طلب المعالى بكل
ما أتاحه الله للإنسان من قوة وإقدام .

وننتقل للهمزية النبوية التى يقول فى مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

إنه يصف ما واكب الميلاد من مظاهر قدسية علوية ، ثم يحيط بصاحب
الرسالة شارحاً ما انطوى عليه من خلق وسمو أهلاه عند الله ليكون رسوله وآخر
رسله للبشر :

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل يغرى بهن ويولع الكرماء

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء

وثمة أمر آخر في نظم شوقي في مناسباته الدينية ، يشف عن فهم عميق
لمرامى الدين الحنيف ، وقياسه بمقاييس العصر ومناهج الحضارة ومذاهبها ،
وما حملته من أسماء ومسميات تستلزمها المعاصرة ، فيذهب في ذلك إلى قوله :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهي حقيقة نادى بها سقراط والقدماء
ومشى على وجه الزمان بنورها كهان وادى النيل والعرفاء

إلى أن يقول :

داء الجماعة من أرسطاليس لم يوصف له ، حتى أتيت دواء
فرسنت بعدك للعباد حكومة لاسوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متثداً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة لامنة ممنونة وجباء

جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء

* * *

ما نظن أن شاعراً ممن سبق شوق ، كما لا نزع أن شاعراً ممن سيأتى من بعده . يستطيع أن يلم بحقائق ودقائق الدين العلوى الشريف بمثل هذه الإلمامة العصرية التى طرحها لتفترش حقبة منذ عهد أرسطاليس حتى ظهرت الاشتراكية بمدلولاتها وأهدافها المتباينة ، التى يتباهى بها المفكرون فى هذا الزمان ، بدعوى نصرة الضعفاء وأخذ حقهم من الأقوياء ، والانتصاف للفقراء من الأغنياء .

ولكن شوق فى تفسيره لما أنزله من آيات فى هذا الشأن ، حفظ على الفقراء كرامتهم ، وساوى بينهم وبين الأغنياء ، الذين نهبهم إلى أنهم لا يمنحون تكراً وإحساناً ، ولكن للفقير والسائل والمحروم حق فى ما لهم ، وهذه رسالة إنسانية تعلو على كل المذاهب الاجتماعية التى أتت بها العصر الجديد ، للسيطرة على الشعوب من خلال مظهر خلاب براق ، ينادى بالتساوى ، وإزالة الفوارق بين الناس ، وجوهر صارم يستمتع فى ظله أصحاب هذه المبادئ .

* * *

ومثال آخر لشوق فى نهج البردة التى بدأها بقوله :
رسم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم
فهو كما سبق وشرحن ، التزم فيها بما كان يذهب إليه قدماء شعراء العرب من غزل ونسيب ولكن شوق عندما نحا هذا المنحنى ، قال :

يا لائمي في هواه والهوى قدر لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أنلتك أذنًا غير واعية ورب متصّيت والقلب في صمم
يا ناعس الطرف لاذقت الهوى أبدًا أسهرت مضناك في حفظ الهوى فم

هنا نستمع إلى غزل رقيق شفيف عفيف ، جرى فيه من حيث المظهر مجرى
السلف ، ولكنه بزهم في العرض والموسيقى والرقّة العاطفية التي يظن قارئ هذه
الآيات أنه إنما انقطع لشعر غزلي تعرض قائله لموقف عاطفي أنطقه بهذه الطلاوة
والرقّة . حتى ليرق له قلب المستمع الإنسان ، لشاعر إنسان .

ولم تخل القصيدة من الحكمة ، وهو شاعر الحكمة العميقة الغور ، التي تجدها
في مكانها ، من غير أن يقحمها أو يفرضها ، ولكنك تجدها في مسارها ومجراها
كأنها قد صيغت من قبل صياغته ما صاغ ، لتكون في هذا الوضع الذي قرأتها
فيه انظروه وهو يقول :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه قوم النفس بالأخلاق تستقيم
والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخم
وفي ذلة المرتجى غفران ربه يقول :

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معصم
إذا خفضت جناح الذل أسأله عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة الندم

هذه لمحات لا تصدر إلا عن امتلاء قلبه خشية الله ، لأنه إنسان يعتر بجأله

المبدع لكل شيء ، ويتشرف بالتذلل له وسؤاله العفو والمغفرة ، فهو من خلقه
ومن صنعه الذى نفخ فيه من روحه فصار إنساناً ، ثم يختم ختاماً بالغ الروعة ،
باهر السناء عندما يدعو ربه بقوله :

يا رب هبت شعوب من منيتها واستيقظت أمم من رقدة العدم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته أكرم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا ولا ترد قومه خسفاً ولا تسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

من أين لنا بشفيح يقف مثل هذا الموقف الإنساني النبيل ، الذى يلتمس
لأمة محمد ، ما بلغته أمم أخرى كانت تجبو عندما انتشر الدين وعنت لعدله
وإنسانيته عتاة الحكام ، إلى أن بلغ الهوان بالأمة الإسلامية مبلغاً جعلها مطمعاً
لكل طامع ، فاستجار بالله لينقذ أمة محمد مما فعلوا بأنفسهم من تركهم تعالىم
دينهم وانصرفهم إلى متاع دنياهم .

* * *

في ثانياً نظم شوقى في نبياته وإسلامياته الكثيرة العديدة المنبثة في كل
ما نظم في هذا الشأن ، نلمح نفحة علوية ، ونلمس روحاً شفيفة طاهرة نقية ،
تتحدث كما لو كانت من وراء حجاب طهور ، من فرط تجردها وتهجدتها ،
لتبعث في جوانب المستمع خشية وخشوعاً ، منذ أن فاضت بالحكمة والموعظة
الحسنة ، وطلب الاستغفار للمخطئ والتماس العفو لمن ضلت نفسه عن حقيقة
الدين وتعلقت بضلال الدنيا .

وعندما كان شوق يشيد في نظمه بالخلافة الإسلامية ، في مواقف عديدة ، لم تكن تخلو كثيراً من النقد البناء ، إنما كان يفعل ذلك لأنها خلافة المسلمين كافة ، وموضع عزتهم وفخارهم ، لا لأنه كان ينحدر من أصل عثماني كما اتهمه بذلك شائوه ، ولكن لأنه مسلم يعترف بخلافة قوية عادلة حازمة ، بعد أن اتسعت رقعتها حتى بلغت أقصى الغرب وأواسط أوروبا وجانباً كبيراً من روسيا ، إلى أن دب فيها فساد الحكام وأمراضها التخمّة وأصبحت عليلة يطمع فيها كل قوى قادر .

وعندما قاد مصطفى كمال جيوشه المظفرة لطرد المحتلين من يونان وإنجلترا وفرنسيين لمواقع عديدة من تركيا ذاتها ، حتى دانت له وكتب الله له النصر تلو النصر ، كبر شوق وهلل ، وهو الذي كان يرقب ما يجري بعين واعية وقلب كلّم ، حتى جاء نصر الله والحق . وبادر بنظم قصيدته .

الله أكبر كم للفتح من عجب ياخالد الترك جدد خالده العرب

* * *

وليس يكفي للمسلم أن يلتزم بفرائض الإسلام الخمسة ، لكن عليه أن يكون في تعامله إنساناً ، يعترف بسجوده لله الخالق المبدع ، لشكره على نعمة وجوده كلما قام للصلاة ، ويلزم نفسه بالطاعة وتقويم شهوات النفس ، كما قام بالصيام ، ويحمد الله على نعمة عطائه ، كلما وصل محروماً وأمد سائلاً بما يسأله ، لأنهم إخوة له ، ولو شاء الله لأعطاهم كل ما بين يديه من نعم ، وسلكه في زميرهم ، ولكن حكمة الله التي جعلت الناس بعضهم فوق بعض

درجات ، أمرت بالصدقة والتراحم .

والإنسان في الشهادتين ، يشهد بوحداية الله وبالصلاة على نبيه ، (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .
ويشهد بأنه رسوله الذي بعثه بالحق والهدى ، والإنسان في شهادتيه يصدر عن شعور وبصيرة بعظمة الخالق وخلق الرسول ، وهو إذا حج لبيت الله ومسجد رسوله ، إنما هو إلى جانب طاعته لأمر الله ، يلتمس التبرك والتعمق والعبرة عندما يطوف بهذه الأماكن المباركة التي قامت منها الدعوة ، ويلتقي بطوائف جاءت مثله من كل فج عميق فيتم التعارف الذي يعقبه تبادل في المنافع .
وهو في زيارته لمثوى النبي ومسجده الكريم ، إنما يسعى إلى خير غاية حيث يتنسم في أرجاء المسجد عطر النبوة وشذى الرسالة ، ويستعيد مآثر النبي وجهاده في نشر رسالته وما أصابه على يد المشركين ، وكيف كان سمحاً كريماً عندما غلبهم ، على قوتهم ، وجاءوا إليه أذلاء يسألونه ما هو صانع بهم ، وهو الكريم ابن الكريم ، فيقول لهم بكل تسامح الشريف العزيز :
« اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

والدين في يقين وقرارة نفس شوق ، تهذيب وخلق ومحبة وتسامح ، ومبادلة للخير والنفع ، وخلود إلى الأخذ من الدنيا بما ينفع ، والصبر إذا ما غاب مطلوب ، فعلى منتظره أن يصبر حتى يلقاه على يد صاحب فضل أو صانع خير .

ولشوق في ذلك شعر حكيم ينم عن إنسانيته :
وإذا الدنيا خلت من خير وخلت من شاكر هانت هوانا

الباب الثالث

شوق الإنسان في مواكبته الأحداث الكبرى

كانت نفس شوق العظيمة ، بعيدة مدى الإحساس بكل ما يقع في العالم في عصره من أحداث تتأثر بها هذه النفس الشفيقة الحساسة ، التي كانت كالرادار ، ينطبع على صفحتها كل أثر لحادث ، وكل عاقبة لحادث طبيعي أو من فعل البشر في أى مكان في عالمه ، فهو كما سبق وقدمنا ، شاعر مصر والعرب والإسلام والإنسانية والعالم عندما تحل بموقع فيه مصيبة أو انقلاب على قديم ، تنكب الجادة السوية ، إلى جديد ينشد الإصلاح والإصلاح ، بعد أن يكون قد درس بدقة المؤرخ الصادق ، والحكيم المتأمل ، والشاعر الذى تصفو نفسه صفاء تبدو على صفحته كل مؤثرات ، قد لا يتأثر بها غيره ، أو يمر بها كحدث لا دلالة له ، إذ لا عاقبة تتلوه .

وكان بوصفه شاعراً نصب نفسه لتأريخ الأحداث العظام ، فإنه كان يرجع إلى ماضى العصور ويقرأ تاريخها وما يكون قد تركه على أهل ذلك العصر من قيم ، وما يكون قد بلغه من عظمة ظلت حيناً من الدهر ، حتى لحقتها طبيعة الأشياء ، من رفعة إلى خفض ، وهو ما كان يؤمن به العالم المحقق المؤرخ

(أرنولد توينبي) الذى أورد تاريخ إمبراطوريات عظيمة لعبت دورها وبشت عقائدها فيما حولها ، واتسعت رقعتها اتساعاً كان فى رأيه هو المؤذن بزوالها . ويضرب فى ذلك أمثالا بإمبراطورية الفرس والرومان وإمبراطورية آل عثمان والإمبراطورية البريطانية ومثلها الفرنسية ، وما كان من شأن البيثة وتنبه الأفكار وفعل الأحداث وتلاشى القدرة على الصمود مثلاً يصنع امتداد العمر بالأجساد وتعرضها لأمراض الشيخوخة .

ذلك ما كان من أمر شوقي فى تبصره لصفحات التاريخ ، وارتقابه لما يجرى أو يقع من أحداث .

ونحن عندما نقف عند قصيدة (كبار الحوادث فى وادى النيل) يتحقق لنا ما عنيناه مما سلفت الإشارة إليه . فهو كإنسان رقت مشاعره حتى استوعبت من فرط حساسيتها تاريخاً منذ عهد ما قبل رمسيس ثم عهد الفراعنة ثم الفرس والروم واليونان والترك والجرمكس ثم العرب الذين استقروا بمصر وأعلوا شأنها حتى صارت كعبة العلم والحضارة .

يقول فى عصر سابق لعصر رمسيس :

ما الذى داخل الليالى منا فى صبانا ولليالى دهاء
فعلا الدهر فوق علياء فرعون وهمت بملكه الأرزاء
أعلنت أمرها الذئاب وكانوا فى ثياب الرعاة من قبل جاءوا
وإذا مصر شاة خير لراعى السوء تؤذى فى نسلها وتساء

وكأنما كان يعز عليه برغم ما بين عصره والعصر الذى كان يوغل فى الكشف

عن سوءاته ، أن يرى مصر في مثل هذا الظلام أيام ضعف بعض الأسر
الفرعونية التي استأسد عليها ضعاف من حولها وسلبوا منها عزمها فراح يهتف كأنما
قد لسعته نار موقدة :

لبثت مصر في الظلام إلى أن	قيل مات الصباح والأضواء
لم يكن ذاك من عمى كل عين	حجب الليل ضوءها عمياء
ما تراها دعا الوفاء بنينا	وأناهم من القبور النداء
وأقى الدهر ثائباً بعظيم	من عظيم آباؤه عظماء
من كرمسيس في الملوك حديثاً	ولرمسيس الملوك فداء

إلى أن يقول :

جل رمسيس فطرة وتعالى	شيمة أن يقوده السفهاء
وسما للعلا فقال مكاناً	لم ينله الأمثال والنظراء
وجيوش ينهضن بالأرض ملكاً	ولواء من تحته الأحياء
ووجود يسأس والقول فيه	ما يقول القضاة والحكماء
وبناء إلى بناء يود الخلد	د لو نال عمره والبقاء
وعلوم تحمى البلاد و(بتنا	هور) فخر البلاد والشعراء
هكذا الدهر حالة ثم ضد	ما لحال من الزمان بقاء

* * *

هذه الصور المتحركة المتألثة بفيض من جواهر السؤدد والمجد في عصر
رمسيس بمصر ، ترينا كيف أن شوق قد أوغل في التاريخ القديم والحديث حتى

لكأنه متخصص فيه موكل به معتمد عليه .

وبنفس تحس العليا وبحس إنسانى رقيق المظهر ، قوى المخبر ، جهير الصوت ، راح يصف ما نالته مصر فى عهد رمسيس من عز و متعة وبناء تمنى الدهر لو نال بعض عمره وخلوده ..

ولم ينس أن يأتى على ذكر شاعر مصر (بتناهور) الذى كان فخراً تعتز به مصر ، عرفاناً بفضلته فى الإشادة بعظمتها وجلال مقامها بين الأمم .
ثم يأتى على ما كان من أمر الفرس ثم الإسكندر الأكبر المقدونى الذى قضى على حكم الفرس فى مصر وأنشأ مدينة الإسكندرية عندما افتتح مصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد .

وتلا ذلك ما كان من أمر روما وقصرها أنطونيوس وما كان من هيأه بكليوباترا هيأاً حمل أوكتافىوس على غزو مصر وانتحارها بعد أن فشلت فى إغوائه ، ثم ما كان من انتحار أنطونيوس ، حبيبها الأول .

هذا القصص الشعرى المليء بالمواقف التى تفيض بالحكمة ، وتتغنى بالعظمة وتأسى على من خذله حظه وتخلى عنه زمانه ، كلها تنبع من نفس ، إن لم تكن فياضة بالحب والإنسانية والحكمة واكتمال الرؤية لبصره وبصيرته ، لما جاءت بمثل هذه القدرة والغنى والثراء الفنى فى اللفظ والمعنى ، وفى النصيح والتثريب ، وفى العبرة والتغنى بالمجد وما يتطلبه من علو همة ، وبعد شأو ، وجهد جهيد حتى تتحقق لطلابه بغيته ومتمناه .

وعندما وقعت مصر مشروع ٢٨ فبراير ، وكانت أغلبية المثقفين غير راضية عنه لأنه لم يحقق آمال الوطنيين ، أنشد قصيدة جاء فيها :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبها وفاز بالحق من لم يأله طلبها
وما قضت مصر من كل لبانها حتى نجر ذيول الغبطة القشبا
لا تثبت العين شيئاً أو تحققه إذا تحير فيها الدمع واضطربا

كناية إلى أن المشروع لم يكن واضح المعالم ، محققاً للمطالب ، ثم يمضى
ليقول :

والصبح يظلم في عينيك ناصعه إذا سدلت عليه الشك والزينا
إذا طلبت عظيماً فاصبرن له أو فاحشدين رماح الخط والقضبا
إن الرجال إذا ما ألجثوا لجأوا إلى التعاون فيما جل أو حزنا

وهنا كان ينظر إلى اختلاف الآراء حول المشروع فقام يدعو إلى الاعتصام
بالتعاون والقضاء على التفكك والتعزب والانقسام .

ويأخذه الإعجاب برسالة الهلال والصليب الأحمرين ، وتترقق في شعره
فيها أمارات الإنسانية بما حملت من رحمة وعناية ورعاية نظم يقول :
(جبريل) أنت هدى السـ ماء وأنت برهان العناية
ابسط جناحك للذين هـ بما الطهارة والهداية
وزد (الهلال) من الكرامة و (الصليب) من الرعاية
فهما لربك راية والحرب للشيطان راية
لم يخلق الرحمن أكبر منها في البر آية
الأحمران من الدم الغا لى وحرمة كناية

الغاديان لنجدة الرائحان إلى وقاية

إن رهافة حس شوقي شرعت يبانها لتشيد بمجهود المتطوعات والمتطوعين من الجمعيتين لإدراك أنبل غاية للجريح يتأوه أو يوشك على النهاية يلتمس الرعاية أو مصاب في حرب أو في سلم ، فإن جهود الجمعيتين لا حدود لها ، وإنما هما للجريح والمريض والعاني بلسم ويد ممدودة لإسعاف كل من شفه ألم أو ألم به عناء . . . هذه لفظة إنسانية من شوقي الإنسان .

• • •

الباب الرابع

شوق الإنسان في الوصف

يختلف الشعراء في نظرهم إلى ما يشاهدون ، وتأثرهم بما يقع لهم أو لغيرهم كما يختلفون في وسائل التعبير اللفظي والمعنوي . بل إن منهم من لا يترك حدثاً من الأحداث على نفسه إلا بقلر ما تركه فراشة على براعم الأزهار . حيث تكون أذهانهم شاردة في آفاق أخرى بعيدة عما يشاهدون . فيصرفهم هذا الانشغال عما يمر بهم أو يمرون به ، وكل في فلك يسبحون .

والشاعر الإنسان شوق ، تحترق بصيرته الحجب ، وتغوص إلى أعماق الأحداث لتصل إلى أسبابها وتربط مظهرها ومخبرها ، ولا تترك شاردة أو واردة إلا وأضفت عليها من شاعريتها ما يظهرها في ثوب باهر اللألاء رقيق الحواشي ، فريد المعنى والمبنى .

بل إن شعر المناسبات الذي يعيب النقاد على ناظميه انصرافهم إليه ، لا يخلو من طرافة وروثق وطلاوة ومرح يقتلع الهم ويثير الهجة والأنس . فقد مدح المتنبي أميراً يدعى النجدى المتوكل ، فأهداه هذا الممدوح فرساً

توفيت في اليوم التالي لإهدائها ، مما دعا المتنبي إلى أن يقول فيها موجهاً الخطاب
للأمير :

أهديتنى أعجوبة هي في العجائب نادره
فرس كأن هبوبه وشك الرياح الطائره
في ليلة قطع المسافة من هنا للآخره

* * *

وقد يمر شاعر فوق جسر البوسفور (جلطة) الذي يربط بين إستانبول
القديمة وإستانبول الحديثة ، فلا يثير شعوره وخياله سوى فرع مؤقت من اهتزاز
الكوبري من فرط قدمه وتركه بلا إصلاح ، ثم يمضي إلى حال سبيله . وقد
سبقت الإشارة إلى هذه القصيدة ولكننا هنا نذكرها بكل ملابساتها .
فالشاعر شوق ، قد تجسدت أمام عينيه ، وملأت مشاعره أحاسيس ورؤى
ألمته قصيدة (جسر البوسفور) التي حوت فوق التهكم الطريف ، غمزة إلى
ما وصل إليه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) من سلطة وصولته صرفته عن أن
يأمر بإصلاحات تبقى على هذا الجسر الوحيد الذي يربط بين إستانبول القديمة
والحديثة ، كما يغمز في قصيدته إلى ما بلغه السلطان عبد الحميد من قلة حيلة ،
مثلاً مر على المعتمد في آخر أيام الدولة العباسية ، بعد أن استشرى سلطان
المالِك حتى دعاه ذلك إلى أن يقول :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

والمعتمد هو أبو المعتضد الذي تزوج من قطر الندى ابنة خمارويه سلطان مصر. فأراد شوقي في لماحية تغز على سواه ، أن يأتي في ختام قصيدته عن الجسر ، بهذين البيتين على لسان المعتمد ، وكأنهما يصفان حال الخليفة عبد الحميد في نهاية حكمه الذي شاع في أرجاء إمبراطوريته الفساد والتفكك نتيجة توزيع السلطة بين معاونيه وتنافسهم وإصغائه لمستشاري سوء من حوله وقد اهتم السلطان عبد الحميد بهذه القصيدة ، وطلبها وقرأها باهتمام .

وفيها يقول شوقي :

أمير المؤمنين رأيت جسراً	أمر على الصراط. ولا عليه
له خشب يجوع السوس فيه	وتمضي الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه	سوى مر الفطيم بساعديه
وكم قد جاهد الحيوان فيه	وخلف في الهزيمة حافريه
وأسمح منه في عيني (جباة)	تراهم وسطه وبجانبه
إذا لاقيت واحدهم تضدى	كعفريت يشير براحتيه
ومشى (الصدر) فيه كل يوم	بموكبه السنى وحارسه
ولكن لا يمر عليه إلا	كما مرت يداه بعارضيه
ومن عجب هو الجسر المعلى	على البوسفور يجمع شاطئيه
يفيد حكومة السلطان مالا	ويعطيها الغنى من معدنيه
يجود العابرون عليه هذا	بعشرته وذاك بعشرته
وغاية أمره أنا سمعنا	لسان الحال ينشدنا لديه

« أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه »
« وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه »

* * *

ولعلكم تنظرون معى إلى مواقف شوقى من الأحداث الجارية ، ومبلغ همه
واهتمامه بتسجيلها ووصف مبعثها وأثرها وخطر أمرها . إنه يصدر فى ذلك عن
طبيعته الإنسانية ، وعن حذبه على كل أثر وذى أثر تكون يده هى الممدودة
للأخذ بما يصلح أمره ويشيد بذكره وخيره .

كانت مصر ترزح منذ الاحتلال البريطانى والحماية التى فرضتها عام ١٩١٤
تحت وطأة الاستعمار العسكرى والاقتصادى .

وحدث أن قام فتية أحرار عزهم أن يروا وطنهم قد أحاطت به كل هذه
المهائن والإذلال ، وشرعوا همهم واستلوا من غمدها ، وتنادوا بإسقاط
التواكل عن نفوسهم وتقدموا بمشروع مدرّوس مجهز للتنفيذ ، يستهدف إنشاء
بنك مصر وما يستتبعه من شركات تستثمر أموال المصريين ويكون خيرها لبلدهم
ولهم لا للغريب المستعمر .

وكان فى طليعة هؤلاء الوطنيين الأباة ، المغفور له طلعت حرب باشا الذى
بنى مع أعوانه اقتصاد مصر الذى كان هو الدعامة للاستقلال والدعوة إلى
التحرر ، وانتشرت شركات بنك مصر حتى بلغت العشرات ، وأغنت مصر
والمصريين عن الاعتماد على مصنوعات الغرب .

هذه الوقفة من شوقى واكبت هذا العزم الحديد ، وأقيم فى دار الأوبرا حفل
لهذه المناسبة ، ألقى فيه قصيدة شوقى (بنك مصر) ، التى وصف فيها

ما كانت وما زالت تؤديه هذه المؤسسة من خير عم الوادى وأقى ثماره .

قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالا أدالوها بإجمال
وانقل ركاب القوافى فى جوانبها لافى جوانب رسم المتزل البالى

ثم يمضى ليقول :

شراة مصر عهدنا كم إذا بسطت يد الدعاء سراعاً غير بخال
هانوا الرجال وهانوا المال واحتشدوا رأيا لرأى ومثقلاً لمثقال
هذا هو الحجر الدرى بينكمو فابنوا بناء قريش بيتها العالى
دار إذا نزلت فيه ودائعكم أودعتم الحب أرضاً ذات إغلال
آمال مصر إليها طالما طمحت هل تبخلون على مصر بآمال؟
فابنوا على بركات الله واغتموا ما هيا الله من حظ وإقبال

* * *

وليس أبلغ من شعر تثيره فى النفس ذكريات حب لوطن حمل له فى قلبه
وجوانحه ما لم يحمله له شاعر من قبل ، لقد عاب ناقدو شوقى عليه أنه موزع
الانتماء ، فهو من أصل تركى جركسى يونانى عربى الموطن ، ولكنه ولد وولد
أهله وأبنائه على أرض هذا الوطن الذى أحبه حباً تلهظونه منبثاً فى معظم
قصائد شعره ، إنه يسجل كل ما يحدث لهذا البلد من أحداث يقف إلى جانبها
محذراً حيناً وناصحاً حيناً ، وفرحاً بما نال من عز أو آسياً إذا ما أصابه جرح
يكون هو من أكثر المتألمين له النائحين من وقع ألمه على نفسه ومشاعره .
وعندما قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان هو فى خدمة الخديو عباس

وشاعره ، رأت السلطة البريطانية المتحكمة آنذاك في أقدار مصر ، أن تبعده عنها ، لأن هذه السلطة تعلم أن قصيدة من شعر شوقي تفعل أكثر مما تفعل القنابل والرصاص .

وقد قبل وهو يكتّم في نفسه حسرة مأثماها بَعْدَه عن مآلفه وظلاله وخلاته وأخذانه ، ورضخ لأمر القوة ، واختار إسبانيا مكاناً ينفي إليه ، وهو مكان كان للعرب فيه وما تزال آثار تنطق بعزهم ومجدهم التليد . ورحل مع عائلته حتى يقضى الله أمراً .

واستقر به المقام ، وأخذ الحنين يزحف إلى نفس شاعر ملء جوانحه حس مرهف . عارم الشوق إذا أحب . حارق الأضلاع إذا توله في حب من أحب . فكيف والشاعر شوق الإنسان الذي تفيض جوانحه بالشوق إلى مصر والحنين إليها .

وهكذا نرى من هذه الملابس ، كيف نظم أندلسيته ، وكيف كانت مشاعره نحو مصر ونيل مصر وإخوانه في مصر وظمؤه إلى كل ما تحمله أرض مصر ، والقصيدة تقع في أكثر من مائة بيت تحس وقدة نفسه في ثنايا هذا . الشعر البالغ الحساسية والحنين :

يا نائح (الطالح) ^(١) أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقص علينا غير أن يداً	قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا	أخا الغريب وظلا غير نادينا

(١) الطالح داد بظاهر أشبيلية .

فإن يك الجنس يا بن (الطلع) فرقنا إن المصائب يجمعن المصائبنا

ثم يمضى ليقول :

رسم وقفنا على رسم الوفاء له
لفتية لا تتال الأرض أدمعهم
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة
لم نسر من حرم إلا إلى حرم
كادت عيون قوافينا تحركه
لكن مصر وإن أغضت على مقة
على جوانبها رفت تماثنا
ملاعب مرحت فيها مآربنا
بتأ فلم نخل من روح يراوحنا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا
ومصر الكرم ذى الإحسان : فاكهة

نجيش بالدمع والإجلال يثينا
ولا مفارقهم إلا مصلينا^(١)
للناس كانت لهم أخلاقهم ديننا
كالخمر من (بابل) سارت لدارينا^(٢)
وكدن يوقظن في الترب السلاطينا^(٣)
عين من الخلد بالكافور تسقينا
وحول حافاتها بها قامت رواقينا
وأربع أنست فيها أمانينا
من بر مصر وريحان يغاديننا
باسمه ذهبت في الم تلقينا^(٤)
لحاضرين وأكواب لباديننا

(١) يقصد ملوك الأندلس .

(٢) بابل ودارينا : مدينتان اشتهرتا من قديم بجودة الخمر .

(٣) يقصد سلاطين وملوك الأندلس .

(٤) شبه مصر بأم موسى حين ألقته في الم صبيًا وسألت الله أن يكفله .

الباب الخامس

شوق الإنسان في وطنياته

يجلو للكثيرين من قراء الشعر ومتابعي آثار ناظميه ، أن يقيموا مقارنة بين وطنية الشاعرين شوق وحافظ ، وهذا أمر إذا بدا في ظاهره شيئاً ميسوراً إلا أن تناوله يتطلب التعمق والدراسة التي تتيح الحكم الصحيح ..

وكما سبق وذكرنا في مطلع حديثنا ، أن غايتنا من هذه الدراسة ، تنصرف إلى الحديث عن شوق الشاعر الإنسان ، ولكني لا أرى بأساً ، تحقيقاً لرغبة من ذكرت ، أن أسلك هذا المسلك في شيء من الإيجاز .

عرفنا مما سردناه ، كيف أن عروق شوق قد توزعت في مختلف الأجناس التركية والشركسية واليونانية ، كما أن حافظ إبراهيم تقاسمه جنسيان ، فأبوه مصري صميم ولد وعاش في ديروط وقد أنجب حافظاً هنالك في (ذهبية) ترسو إلى جانب النيل ، وقد اشتهر لقبه بشاعر النيل ، أما أمه فهي (هانم بنت أحمد البورصة لى) من أسرة تركية الأصل .

وليس مكان الولادة والانتماء إلى بلد بضرورة في أن يكون هذا المتسمى وطنياً .

ولدينا في حشايا التاريخ أمثلة عديدة نضربها للبرهان على ما ذكرنا ،
فنابليون من أصل إيطالى فقد ولد في بلدة أجاكسو بجزيرة كورسيكا الإيطالية
التي احتلتها فرنسا بعد سنوات معدودة من مولد نابليون ، وهتلر كان نمساوياً ثم
نرح إلى ألمانيا ، كما أن صلاح الدين الأيوبي كان كردياً عاش أبوه فترة في سوريا
ثم نرح به إلى مصر وعاش بها حتى ولى أمرها ، وكأن القدر قد أعده ليدفع عن
مصر وغيرها من الشرق العربى شرور التتار والصليبيين .

كذلك كان الأمر بالنسبة لكاترين الأولى قيصرية روسيا ، فقد كانت ألمانية ،
كما أن العائلة الإنجليزية المالكة من أصول ألمانية ومن هانوفر ومن العائلة الألمانية
المالكة .

نخلص من هذا إلى أنه لا دخل في مكان الميلاد ، أو الانتماء الأصلي لبلد
من البلدان ، في تكوين وطنية الشاعر أو وطنية أى إنسان . أما بالنسبة لوطنية
شوقى ووطنية حافظ في نظميهما ، فإن هناك أسباباً ودوافع تقرب بينهما حيناً
وتباعد بينهما حيناً .

ذلك أن شوقى نشأ في بيئة تركية أو أرستقراطية خالصة ، وترى جدوده كما
ترى هو فى القصور ، فأصبح الاعتزاز بهذا النسب والحسب ضرورة طبيعية أو
ضربية أدبية .

أما حافظ فقد نشأ في بيئة نصفها مصرى أصيل من ناحية الأب ، ونصفها
الآخر تركى متواضع من ناحية الأم التي كانت تسمى من ناحية أبيها
(البورصة لى) إلى أصل تركى ديموقراطى .

فاذا ما هم شوقى - وهذا ما كان يهتم به شائوه - بالدفاع عن تركيا

وسلطان تركيا وخلافة العثمانيين ، قالوا إنما هو يفاخر بحسبه ونسبه ، في حين أنه كان يدافع عن الخلافة بوصفها نصيرة الإسلام ، وحامية حماه ، وأن في إضعافها إضعاف للإسلام ، وهذا ما كان يجري ، إلى جانب ما كان يأتيه السلاطين مما يطول الحديث حوله ولا يتطلبه الموقف .

أما حافظ وإن كان يشترك مع شوقي في هذه المشاعر التي يملها التمسك بعزة الإسلام والدفاع عن ركنه ، فإنك كنت تلمس وهو يتحدث عن الخلافة أنه يتحدث حديث الحادب عليها والمشفق من أن تضعف فيضعف الإسلام . ولكن بجرارة لا وقدة فيها ، كتلك التي كانت تظهر وتبين عندما كان شوقي ينبرى للدفاع عنها في بيان قوى ولسان فصيح علوى .

كذلك فإن شوقي يختلف عن حافظ في وطنيته التي كانت بحكم تنقلاته ورحلاته ، تتعدى الحدود ، وتقف إلى جانب كل شعب مظلوم مقهور مغلوب على أمره ، في حين ركز حافظ حماسه وثورته على مصر وشعب وادى النيل . ويلمس قارئوه في وطنياته نارا تأرجح وثورة تشتعل ، ولا عجب في ذلك ، فقد اكتوى بتار المستعمر البريطاني الذي ما زال به حتى حمل الحاكمين على إعقائه من عمله كضابط في الجيش ، أما شوقي فإن نفس المستعمر لم يلحقه إلا بأذى يسير ، حيث أمر بنفيه خارج مصر ، حيث اختار الأندلس مقاماً ، وهي جنة قال هو نفسه فيها :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه في الخلد نفسى
وفى هذا البيت وحده ، البرهان على تقديسه لوطنه مصر وتقانيه في حبها .
وحافظ يقول في مناسبة نجاة سعد زغلول من الاعتداء عليه :

الشعب يدعو الله يا زغلول أن يستقل على يديك النيل
أيموت (سعد) قبل أن نحيا به خطب على أبناء مصر جليل

ووطنيات حافظ عديدة ووفيرة ، تلمس فيها الوفاء الأصيل والحب
الخالص في ألفاظ بريئة كأنه الطفل الذي يتزعج إلى حنان أبويه ، في حين كان
شوقي يبت في وطنياته ، مع حرارة الوفاء ، الحكمة والنصح والتكريم ، كأب
يحنو على ولده وقلدة كبده .

الشاعران في إيجاز ، وطنيان صميمان ، والمقارنة بين نظميهما في الوطنيات ،
أشبه بالمقارنة بين حدى القصص .
فإذا قلت إن شوقي حسبه أن يقول :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه في الخلد نفسى
فكيف ننسى لحافظ قوله في مصر وعلى لسانها :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبى قواعد المجد وحدى
أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودراته قلائد عقدى
كم بغت دولة على وجارت ثم زالت وتلك عقبى التعدى
إننى حرة كسرت قيودى رغم رقبى العدا وقطعت قدى

* * *

تعالوا ننظر إلى شعر شوقي وهو يجلل به الأحداث الوطنية ففي عام ١٩١٩
ثارت البلاد في طلب استقلالها . وغادر مصر إلى باريس أعضاء من الوفد

المصري ، لعرض قضية البلاد على مؤتمر السلام العام في (فرساي) . وكان سعد قد تلقى وهو في باريس دعوة من لورد (ملنر) وزير المستعمرات البريطاني ، ليتفق معه على مركز البلاد وتحديد علاقة إنجلترا بها . وانتهت المحادثات بينهما إلى مشروع قدمه لورد ملنر فاتفق سعد مع زملائه على ضرورة عرضه على البلاد ، وانتدب الوفد أربعة من أعضائه لهذه المهمة ، وتباينت الآراء حول المشروع مما حمل شوقي على أن ينظم فيه :

ما بال قومي اختلفوا بينهم	في مدحة المشروع أو ثلبه
كأنهم أسرى أحاديثهم	في لين القيد وفي صلبه
يا قوم هذا زمن قد رمى	بالقيد واستكبر عن سجنه
من يخلع النير يعيش برهة	في أثر النير وفي نديه

إلى أن يقول ناصحاً :

قد صارت الحال إلى جدّها	وانتبه الغافل من لعبه
الليث والعالم من شرقه	في هية الليث وفي غربه
قضى بأن نبى على نابه	ملك بنينا وعلى خلبه
ونبلغ المجد على عينه	وندخل العصر إلى جنبه

* * *

وعندما قامت أحداث دنشواي في عهد كرومر الذي حكم مصر كأنه السجان والحاكم بأمره ، حتى لقد قضت آثار مشاتيق دنشواي ، بنقله من مصر ، حيث قام شوقي بنظم قصيدة في هذه المناسبة جاء فيها :

يا مالكا رق الرقاب ببأسه هلا اتخذت إلى القلوب سيلا
لما رحلت عن البلاد شهدت فكأنك الداء العياء رحلا
أوسعتنا يوم الودائع إهانة أدب لعمرك لا يصيب مثيلا
أنذرتنا رفا يدوم وذلة تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة ؟ لا يملك التغيير والتبديلا
فرعون قبلك كان أعظم سطوة وأعز بين العالمين قبلا

* * *

وفي حنينه لمصر، عارض سينية البحرى :
صنت نفسى عما يندس نفسى وترفعت عن ندى كل جيس^(١)
بسينية شوقية تشى بشدة تعلقه ببلدة مصر واعترازه بالانتساب إليها ووصف
معانيها في أبيات ذكر كثير من النقاد أنها تفوق سينية البحرى ، برغم تواضعه في
تقديمها حيث يقول من نثره في مقلمتها :
كنت كلما وقفت بحجر ، أو أطففت بأثر ، تمثلت بأبياتها : واسترحت من
موائل العبر إلى آياتها وأنشدت فيما بينى وبين نفسى :

وعظ البحرى إيوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس
ثم جعلت أروض القول على هذا الروى ، وأعالجه على هذا الوزن ، حتى
نظمت هذه القافية المهلهلة . وأتممت هذه الكلمة الربضة . وأنا أعرضها على
القراء راجياً أن سيلحظونها بعين الرضاء ، ويسحبون على عيونها ذيل الإغضاء .

(١) جيس : أى جنان .

اختلاف النهار والليل ينسى
وصفاً لى ملاوة^(١) من شباب
عصفت كالصبا اللعوب ومرت
وسلا مصر ، هل سلا القلب عنها
أحرام على بلابله الدوح
شهد الله لم يغب عن جفوني
إلى أن يقول متشوقاً :

وكان الأهرام ميزان فرعون
روعة فى الضحى ملاعب جن
و(رهين الرمال)^(٢) أفطس إلا
تجلى حقيقة الناس فيه
لعب الدهر فى ثراه صبيّاً
فأصابته به المالك (كسرى)
يا فتوادى لكل أمر قرار

يوم على الجبابر نحس
حين يغشى الدجى حماها ويغشى
أنه صنع جثة غير فطس
سبع الخلق فى أسارى أنسى
والليالى كواعباً غير عنس
و(هرقلا) و(العبرى الفرنسى)
فيه يبدو وينجلي بعد لبس

* * *

ومن الحنين نسمعه يقول :
سويج^(٣) النيل رفقا بالسويداء
فما تطيق أنين المفرد النائي

(١) ملاوة : بمعنى البرهة .

(٢) ورهين الرمال : يعنى أبو الهول .

(٣) سويج : تصغير ساجع .

لله واد كما يهوى الهوى عجب تركت كل خلى فيه ذا داء
وأنت فى الأسر تشكو ما تكابده لصخرة من بنى الأعجام صماء
أمنى وأصبح فى نجاك فى كلف حتى ليعشق نطقى فىك إصغافى
مؤيداً بك فى حلى ومرتحلى وماهما غير إصباحى وإمسافى

* * *

الباب السادس

إنسانية شوقي تتغلغل في كل ما يقع عليه بصره أو يعتز به

كان شوقي أمير الشعراء ، سيداً في كل مكان يجلس فيه أو يغشاه . برغم ذلك ، رغم هذه الهالة من العظمة التي انحدرت إليه من أصل أثيل ونسب أصيل ، وإحاطة شعره في كل باب وفن ، وما جدد فيه مما لم يسبقه إليه سابق ، رغم كل ذلك فلم يكن في جيله من أبناء عصره من هو أبعد من الزهو ولا أقرب إلى التواضع منه ، حتى إن جلسه ليشعر معها قل من شأنه وضؤل خطره - أنه صنوه ونظيره في القدر والمترلة ، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء .

وأغلب الظن أن هذه الصفات مردها جميعاً إلى علمه العميق الشامل بحقيقة الدنيا والدر والناس وضآلة كل هذه المظاهر التي مآلها جميعاً إلى التراب وهو يقول مخاطباً توت عنخ آمون :

أنزلت حفرة هالك أم حجرة الملك المكين
أم في مكان بين ذ لك يدهش المتأملين ؟

هو من قبور المتلفين من ومن قصور المترفين
لم يبق غال في الحضارة لم يحزه ولا ثمين
ميت تحيط به الحياة في زمانه معه دفين
وذخائر من أعصر ولت ومن دنيا ودين
حملت على العجب الزمان وأهله المستكبرين

وكان من أثر هذه العظمة النفسية ، تلك الأوصاف البارعة اللفظ والمعنى لكل ما يقع عليه بصره . وهو يعتد به لأنه من صنع أهل بلده ومن عجائب الدنيا في عصر تناقصت فيه العجائب ، ومرد ذلك أيضاً إلى أن إحساسه الوطني لم يكن إحساس فرد يشعر بعظمة أمة ذات ملايين ، هو مجرد واحد منها ، وله نصيب ضئيل من انعكاس هذه العظمة على أهل بلدها ، بل كان شعوره بعظمة بلده قد أوحى إليه أنه موكل بأن يملأ بالإشادة بتلك العظمة أذن الزمان وسمع الدهر ، ليمشي مزدهياً به في كل مكان ، وتلك مرتبة في الشعور الوطني والاعتزاز بأجداد بلده ، قلما يرقى إليها إلا مشاعر زعماء الوطنية الذين تدفعهم عظمة بلدهم إلى أن يندفعوا في الارتقاء بهذا الوطن والدفاع عن حياضه والفناء من أجله إن دعا داعي الوطن .

وهو إلى جانب الاعتزاز والاعتداد بوطنه ، كان شديد الحب للفن ، والولوع به مرسوماً أو منحوتاً أو منقوشاً أو مقروءاً أو مسموعاً في غناء أو نشيد أو ترتيل ، كلفاً بتعرف دقائق كل هذه الفنون ، وهي التي أعانته في التعمق إلى أغوار ما يصف مما يقع عليه بصره أو يصل إلى أذنه من حديث أو غناء كل هذه

العظام التي أحاطت بشوقى ، كان من شأنها أن تدبر رءوس بعض ضعاف النفوس ، إلا أن شوقى كان دائم الإغضاء عما يفد عن خلق صديقه فى ثورة الغضب ، أو إفراط الدالة ، أو بادرة الهفوة ، باسطاً له العذر ، مغضياً عن الصغائر ، حتى ليحس صديقه أنه لم يأت ما يقتضى العتاب عليه .
وكان ألد خصومه كذلك ، فى أمن من كيده ، عجزاً عن ذلك ، بل محافظة وقدرة منه على ما يقتضيه شرف الخصومة وقواعد الأدب فيما جل وهان .

وكأنما قد ركبت فى بصره (أشعة ليزر) التى تكشف عن أقصى أغوار ما يختفى تحت باطن الأرض أو داخل جدار سميك حصين ، وهذه الموهبة التى حباها به الله فوق ما حباه من الفكر المصقول واللفظ المتميز ، كان شوقى إذا وصف أو اعتر أو تباهى ، ينثر الدر المنظوم فى شعر جزل ، عميق المعنى ، رقيق العبارة موسيقى الجرس .

* * *

نحن الآن نريد أن نؤيد من خلال شعر شوقى ما سبق أن أوردناه فيما سلف ونمعن الفكر فيما يصل إليه فكره وبصيرته عندما يتغنى فى قصيدة (توت عنخ آمون) بمجد الأولين ومجد بلده العزيز المكين . فهو عندما يبدأها بمخاطبة (ليوشع) فى قوله : « قفى يا أخت يوشع خبرينا » ، إنما يذكر قصة غابرة ليوشع بن نون فى موسى عليهما السلام ، واستيقافه الشمس .
لقد روى أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب ، خاف أن تغيب قبل فراغه منهم ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم

فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

يقول شوقي :

قنى يا أخت (يوشع) خبرينا أحاديث القرون الغابرينا
وقصى من مصارعهم علينا ومن دولاتهم ما تعلمينا

ثم يمضى ليصف عواهل وملوك ذلك الزمن :

فكانوا الشهب حين الأرض ليل وحين الناس جد مضللينا
مشت بمسارهم فى الأرض (روما) ومن أنوارهم قبست (أثينا)
ملوك الدهر بالوادي أقاموا على (وادي الملوك) محجبيننا
فرب مصفد منهم وكانت تساق له الملوك مصفديننا
إذا عمدوا للمأثرة أعدوا لها الإبتقان والخلق المتينا
وسر العبقرية حين يسرى فينتظم الصنائع والفنونا
وآثار الرجال إذا تناهت إلى التاريخ خير الحاكميننا
وكان العز حليته وكانت قوائمه الكتاب والسفيننا
وتاج من فرائده (ابن سبتي) ومن خرزاته (خوفو) و (مينا)

وكان رمسيس يكنى بابن سبتي أما رمسيس فهو رمسيس الثاني المعروف
بسوزستريس ، ويلقب عندما يرد ذكره بالأكبر ، لأنه كان أعظم ملوك مصر
سلطة وقوة . وطالت مدة حكمه وكثرت فيها الآثار القديمة والعمائر المشهورة التي
حملت اسمه ورسمه .

ويستقل كما يستقل الطائر الغريد بين أطلال يصفها بالعظمة ، ويضئ عليها
من عظمة شعره ما يكسبها الجلال والخلود .

نحن الآن عند (توت عنخ آمون) فترى شوقى أمام هذه العظمة عظيماً على
القدر ، بديع الوصف ، عميق المعرفة بكل ما يدق على الأفهام :

خليلي اهبطا الوادى وميلا	إلى غرف الشمس الغابرينا
وسيرا فى محاجرهم رويداً	وطوفا بالمضاجع خاشعينا
وخصا بالعمار وبالتحايا	رفات المجد من (توتنخمينا)
وقبراً كاد من حسن وطيب	يضىء حجارة ويضوع طينا
يخال لروعة التاريخ قُدت	جنادله العلا من (طورسينا)
وكان نزيله بالملك يدعى	فصار يلقب الكثر الثمينا
وقوماً هاتفين به ولكن	كما كان الأوائل يهتفونا
فم جلالة قوت ورامت	على مر القرون الأربعينا
جلال الملك أيام وتمضى	ولا يمضى جلال الخالديننا

ولم يفته وهو الشاعر اللبق اللماح بعد أن طار بهذا الفرعون إلى أعلى الذرى
وأسكنه أطيب الجنات بالمديح والثناء ، لم يفته أن يذكر بالبعث والنشور ، فقد
تغلبت إنسانية شوقى على افتخاره بآثار بلده وفراعينها ، فضى يقول :

سللت من الحفائر قبل يوم	ينسل من التراب الهامديننا
فإن تك عند بعث فيه شك	فإن وراء البعث اليقيننا

ولو لم يعصمك لكان خيراً كفى بالموت معتصماً حصينا
يُضَرُّ أخو الحياة وليس شيء بضائره إذا صحب المنونا
زمان الفرد يا (فرعون) ولى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

وكثيراً ، ما كان يشيد شوقي بالشورى وبالبرلمان بسبب تقديسه لحرية الرأى .
وإنه فى إحدى قصائده يقول بمناسبة افتتاح أول برلمان فى مصر وكان يوافق
افتتاحه يوم السبت الموافق ١٥ مارس ١٩٢٤ :

مصر إذا ما راجعت أيامها لم تلق للسبت العظيم مثيلاً
(البرلمان) غداً يمد رواقه ظلاً على الوادى السعيد ظليلاً

* * *

لعل من أروع ما نظم شوقي ، على روعة كل ما نظم ، نظمته فى نهر النيل
كان قد انعقد فى (أثينا) باليونان مؤتمر للمستشرقين فى أوائل العشرينات . ولم
يستطع شوقي أن يلبى الدعوة إليه . وكان يخص الأستاذ (مرجليوث) مدرس
اللغة العربية فى جامعة أكسفورد بود وتقدير وعرفان . فأرسل إليه قصيدة النيل
لتلقى نيابة عنه فى المؤتمر وقد أرفقها بكتاب إليه جاء فيه :

« الشعر كالأحلام ، تدخل على المسرور الكرى ، وتكثر على المحزون فى
السرى وقرحة الشاعر كعين صاحب الأيام . عندها للحزن عبرة ، وللسرور
عبرة . وهذه أيها الأستاذ الكريم كلمة ، نظمتها تغنياً بمحاسن الماضى وتقيداً
لمآثر الآباء . وقضاءً لحق (النيل) الأسعد الأجد وأبعثها إليك عرفاناً لفضلك على

لغة العرب وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياء علومها ونشر آدابها وإلقائها
كلما طلعت الشمس خلف الضباب دروساً نافعة على أنبل شباب العصر ، في
أعظم جامعات العالم :

من أى عهد في القرى تتدفق وبأى كف في المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقق

ثم يمضى ليصف لون مائه الذي يصبغه الطمى ليقول :
وبأى نول أنت ناسج بردة للضفتين جديدها لا يخلق
تسود ديباجاً إذا فارقتها فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق
في كل آونة تبدل صبغة عجباً وأنت الصابغ المتأنق
تسقى وتطعم لا إناؤك ضائق بالواردين ولإخوانك ينفق
والماء تسكبه فيسيل عسجداً والأرض تغرقها فيحيا المغرق
يتقبل الوادى الحياة كريمة من راحتك عيمة تتدفق
أصل الحضارة في صعيدك ثابت ونباتها حسن عليك مخلق
وُلدت فكنت المهد ثم ترعرعت فأظللها منك الحفى المشفق
ملأت ديارك حكمة ، ماثورها في الصخر والبردى الكريم منبق^(١)
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى يسعى لهن مغرب ومشرق

(١) منبق : أى مصطف .

إننا نرى شوق أمام هذه القصيدة العصماء ، التي تغز على السابقين
واللاحقين ، وكأنه يقف أمام عاهل عظيم وملك مظفر ، يحوطه الجلال ، ويتيه
بعزه وقوته وثراه ، ينشد هذه القصيدة الجليلة التي تربي أبياتها على المائة
والخمسين بيتاً ، كأنما النيل وهو يسرى بين شاطئيه جذلان وفرحاً ، تهتز جوانبه
ويتفرق مرسلاً أحلى الخزير ، ليتجاوب مع هذا المديح العلوى في رفعتة .
والفريد في صنعته والإنسانى في ثنائه وتقديره .

* * *

البَابُ السَّابِعُ

شوقى الشاعر الإنسان فى وصفه ومدائحہ ومراثيه

الشعر الإنسانى فى كل ما نظمہ شوقى الشاعر الإنسان ، كان ينساب كالجدول والنهر النخيل ، يطرب سامعه ويشير إعجابه بما تضمنته منظوماته فى كل مناسبة ينظم فيها ويبعث فى كائنات ما يصف الحياة وكأنما هى مخلوقات حية تحس وتتألم ، وسبق لنا أن دللنا على ذلك بأمثلة عديدة من شعره .

وحيثما وقع نظرك على نظم له . استوقفك منظر أو قصة أو حوار . تسرى فى جنباته الإنسانية المفعمة بالحب والخير ونشدان الكمال .
تعالوا ننظر إلى هذه القصيدة التى تشبه الأرجوزة فى الرفق بالحيوان :

الحيوان	خلق	له	عليك	حق
سخره	الله	لكا	وللعباد	قبلكا
حمولة	الأثقال	ومرضع	الأطفال	
ومطعم	الجماعة	وخادم	الزراعة	
من	حقه	أن	يرفقا	به
		وآلا	يرهقا	

إن كل دعه يسترح وداده إذا جرح
ولا يجمع في داركا أو يظم في جواركا
بهيمة مسكين يشكو فلا يبين
لسانه مقطوع وماله دموع

ويقول محييا غاندى فى جهاده من أجل استقلال بلاده ، وكان غاندى فى
هذا الجهاد يحى مصر فى جهادها من أجل استعمار اكتوى هو وشعبه بناره :

سلام النيل يا غاندى وهذا الزهر من عندى
وإجلال من الأهد رام والكرنك والبردى
ومن مشيخة الـ وادى ومن أشباله المرد
سلام حالب الشاة سلام غازل البرد
ومن صد عن الملح ولم يقبل على الشهد
ومن يركب ساقيه من الهند إلى السند
سلام كلما صليت عريانا وفى اللبد
وفى زاوية السجن وفى سلسلة القيد

* * *

ولعل من أرق ومن أعمق ما رثى به ابن كشوقى أباه المرحوم على بك شوق
هذا الرثاء الفلسفى العميق :

سألونى لِمَ لَمْ أرث أبى ؟ ورثاء الأب دين أى دين

أيها اللوام ما أظلمكم أين لي العقل الذي يسعد أين
يا أبي ما أنت في ذا أول كل نفس للمنايا فرض عين
هلكت قبلك ناس وقرى ونعى الناعون خير الثقلين
غاية المرء وإن طال المدى آخذ يأخذه بالأصغرين
وطبيب يتولى عاجزاً نافضاً من طبه خفي حين

ثم يمضى ليقول في فلسفة حزينة عميقة :

أنا من مات ومن مات أنا لقي الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة في بدن ثم صرنا مهجة في بدنين
ثم عدنا مهجة في بدن ثم نلقي جثة في كفنين
ثم نحى في (على) بعدنا وبه نبعث أولى البعثين
انظر الكون وقل في وصفه كل هذا أصله من أبوين

* * *

ولقد تعرض المتنبي لنقاد زمانه مثلما تعرض شوقي لناقدي شعره الذي حوى
الكثير من المذائح والتهاني والمراثي . ومن عجب أن نجد المتنبي وهو الشاعر العربي
الأثير لدى شوقي ، يشترك معه في تلقى سهام الناقدين . وكان الأمر بين الشاعرين
في المديح يختلف ، وكذلك في التهاني والمراثي . فقد كانت الصناعة الشعرية في
عهد المتنبي ، والحاجة لمطالب العيش ، كانت تدفعه إلى سلوك هذا المسلك .
أما شوقي الذي عاش في رغد ونعيم وعلو شأن ، فقد كان وفاؤه لإخوانه وأحبابه
ورقة مشاعره هي التي لم تقعد به يوماً عن أن يهنئ أو يمتدح أو يرثي كلما وقع

حادث من هذه الأحداث . بل إن سكوته هو الذى يعاب عليه . إن هوسكت أو توائى . كما قال عندما رثى أباه بعد أن توائى ولحقه من ذلك اللوم .
وحدث للمتنبى وهو آنذاك شاعر سيف الدولة أمير ولاية حلب ، أن تلقى نبأ وفاة رضيع صغير لسيف الدولة ، فلم يكن منه إلا أن ساوى بين الفطيم والعظيم فى موقف الموت وراثه بقوله :

فإن تك فى قبر فإنك فى الحشا وإن كنت طفلاً فالأسى ليس بالطفل
أيفطمه (التوراب^(١)) قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ . إلى الأكل
هذا الرثاء لفطيم فقداه أبوه ، وله من قبله فتيان وصبايا ، غير أن المتنبى لم يفرق بين كبير وصغير ، لأن الأسى لا يدرك هذه الفوارق ، فهو إن وقع ، فقد أصاب القلب بالهم والعين بالدمع .

* * *

وعندما أقيم احتفال مهيب لتمثال نهضة مصر ، انبرى شوقي فى هذا الحدث ليقول قولاً رنّ فى سمع الزمان ، وامتلأ بالفخار والحكمة والشعر الرصين .

وهو فى هذا لا يمدح محمود مختار صانع التمثال وإنما يعود بالذكرى لمجد مصر الخالدة ، فماذا كان يطمع فى نبيله من مختار ؟ إنه شاعر كل حدث جليل .
قال فى هذه المناسبة التى لا ندرى كيف يلام من قالها على أنه شاعر

(١) التوراب لغة فى التراب . وهو يعنى أن التراب يفطمه قبل أن يحين موعد فطامه . ثم يأكله قبل أن يتعلم كيف يأكل . هذا رثاء يحمل كل هذه الحكمة البالغة واللفظ البليغ .

للمناسبات والذكريات ، وماذا فى الحياة سوى ماضٍ دابر ، ويوم حاضر .
وغد مرتقب .

جعلت	حلاها	وتمثالها	عيون	القوافى	وأمثالها		
وأرسلتها	فى	سماء	الخيال	تجر	على	النجم	أذيالها
وإني	لغريد	هذى	البطاح	تغذى	جناها	وسلسالها	
ترى	مصر	كعبة	أشعاره	وكل	معلقة	قالها	

ثم يمضى بعد أن يخطر من لم يكن يعلم أنه شاعر هذا الوطن وترجان
صدق فى كل ما يحيط به من نحوس أو سعود :

لقد	بعث	الله	عهد	الفنون	وأخرجت	الأرض	مثالها		
تعالوا	نرى	كيف	سوى	الصفاة	فتاة	تسلم	سريالها		
دنت	من	أبى	الهول	مشى	الرءوم	إلى	مقعد	هاج	بلبالها
وقد	جاء	فى	سكرات	الكرى	عروض	الليالى	وأطوالها		
وألقي	على	الرمل	أرواقه	وأرسى	على	الأرض	أثقالها		
فهل	سكبت	فى	تجاليده	شعاع	الحياة	وسيالها			
أتذكر	إذ	غضبت	كاللابة	ولت	من	الغيل	أشبالحا		
وألقت	بهم	فى	غمار	الخطوب	فخاضوا	الخطوب	وأهوالها		
وثاروا	فجن	جنون	الرياح	وزلزلت	الأرض	زلزالها			
ومن	ذا	رأى	غابة	كافحت	فردت	من	الأسر	رثبالها	
وأهيب	ما	كان	بأس	الشعوب	إذا	سلح	الحق	أعزالها	

إن قارئ هذه القصيدة ، يحس كما لو كان ناظمها يحمل سيفاً ، ويلوح به
مفتخراً مختالاً بأتمته التي خاضت الخطوب والأهوال وثارَت على القسر والقهر ،
وكأنها الريح قد ثارت في جنون ، وكأنها الأرض قد غشيها زلزال ، حتى تم لها
ما ثارت من أجله ، مهما بدا من خلويدها من السلاح ، فقد سلحها الحق بما
هو أقسى وأمضى من كل سلاح .

والحديث يطول في وصف أومرائي شوقي . وإن كان قد سبق أن ذكرنا طرفاً
من مراثيه في الندوة الأولى ، فإن العودة في هذه الندوة إلى ذكر بعض المراثي أو
الوصف ، إنما مردها إلى ما احتواه الجديد من فلسفة ومعركة بالحياة وإدراك
لحياتها ونخاعها .

* * *

الباب الثامن

إنسانية شوقي الفنان في مسرحياته وغنائياته

إن السعى إلى التدليل على ما فى شعر شوقي من جمال وإنسانية ، ليس فى حاجة إلى مجهود ، ولكن الأمر الشاق ، هو أنك لا تستطيع أن تهدئ من نبض حواسك ، لوفرة وكثرة ما يستوقفك من هذا الجمال .

ولعل الشعر قد تميز عن باقى الفنون ، بأن الجمال فيه ، متنوع الصور ، عسير على التحليل الواضح ، عصى على النفوذ إلى حناياه وثناياه بصورة متيسرة فى باقى الفنون .

ولم يترك شوقي باباً من أبواب النظم إلا طرقه وأجاد فيه بنفس الجودة التى يلقاها قارئه فيما سبق له أن قرأه من نظمه فى أبواب الشعر المعروفة . من وصف إلى فخر إلى حكمة إلى فلسفة إلى تهنئة إلى مدحة إلى رثاء . لم يكتف شوقي بهذا بل إنه كتب للأطفال شعراً مبسطاً ، فيه الحكمة تتجاوز الهزل والبساطة والإنسانية .

نورد من ذلك قصيدة الثعلب وأم الذئب التى يقول فيها :

كان ذئب يتغذى فجرت فى الزور عظمه

ألزمته الصوم حتى فحمت في الروح جسمه
فأنى الثعلب يبكى ويعزى فيه أمه
قال يا أم صديقي بي مما بك غمه
فاصبري صبراً جميلاً إن صبر الأم رحمه
فأجابت : يا بن أخى كل ما قد قلت حكمه
ما بي الغالى ولكن قولهم مات بعظمه
ليته مثل أخيه مات محسوداً بتخمة

* * *

ولا نزع أن شوقى أضاف إلى قيثارة الشعر المشجية . وترّاً جديداً في الشعر
العربى ، هو المسرح الشعرى الغنائى ، ولكنه اختار خامه هذا الوتر ، وأجاد
استخدامه إجادة تملك على النفس أمرها ، وتحرك أشجان القلب الخالى
والشجى على حد سواء . من فرط ثراء هذا الإيقاع المبدع الرنان ، والجرس
البديع الأغنى . والموسيقى التى تنساب فى اللفظ قبل اللحن .
لقد سبق شوقى إلى تقديم المسرحية الغنائية الشعرية ، بعض شعراء
منحصرين ، كان شعر مسرحياتهم لا هم له ولا غاية منه إلا أن يكون قاعدة
يقيم عليها الملحن ما يشاء من لحن ويكسوها الثوب الذى يترجم عن المعنى
بصورة بدائية التصوير ، ساذجة المعانى .

استمع إلى بيتين من المسرحية الشعرية المنظومة عن روميو وجوليت
أجوليت ما هذا السكوت ولم أكن لأعهد فيك الصمت عنى فى قرى

سلام على حسن يد الموت لم تكن لتمحوه إذ تمحو هواه من القلب
وكان الشيخ سلامة حجازي هو الذي يقوم بالتمثيل في هذه المسرحية التي
كان يغنيها ، واسمها مصارع العشاق ، وقد كان الشيخ سلامة آنذاك هو نجم
المسارح الغنائية التي غنى فيها روايات : الناصر صلاح الدين ، والأفريقية ،
وروميو وجولييت ، وكانت ألمع سنواته على المسرح تلك الفترة التي تقع بين عام
١٩١٢ حتى عام ١٩١٨ ، ثم بدأ المرض بعدها يزحف إليه حتى أقعده ، تماماً
عن التمثيل والغناء .

وكانت هناك في تلك الآونة مسارح أخرى كانت مادة أدائها مشابهة . وهي
مسرح منيرة المهدي ، ومسرح إخوان عكاشة . وكانت بعض مسرحيات
وأوبريتات هذه الفرق تؤدي باللغة العامية التي كان يكتبها بيرم التونسي وبديع
خيرى وأمين صدقي ويونس القاضي ، إلى جانب مسارح استعراضية للغناء
الفرانكو آراب مثل مسرح الريحاني وعلى الكسار والكورسال وكازينو
دى بارى .

وعندما دخل محمد تيمور حلبة المسرح ومعه بيرم التونسي وعباس علام
انتعشت النهضة المسرحية ووجدت من الملحنين أمثال سيد درويش وداود
حسنى وزكريا أحمد وكامل الخلعي ، معاوناً على أداء رسالة المسرح بأقصى
إمكانياتهم ، فقد قدم سيد درويش روايات العشرة الطيبة والباروكة
وشهرزاد ، وقدم زكريا أحمد وكامل الخلعي وداود حسنى روايات عزيزة
ويونس ويوم القيامة وعلى بابا . ثم جاءت ملك الفنانة التي كانت خير أوبراتها
(مایسة) في آخر المطاف .

كان لابد من هذه المقدمة عن المسرح الغنائى الشعرى فى مصر ، حتى تربط بينه وبين ما قام به أحمد شوقى من جهد وما ساهم به من عمل مجيد وضعه فى مصاف كتاب المسرحيات الشعرية الدرامية منها والغنائية . فقد قدم للمسرح روايات على بك الكبير ، وقبيز ، والست هدى وغيرها ، ثم اتجه إلى المسرح الغنائى .

ويشاء القدر البسام ، أن يضع الأستاذ عبد الوهاب ، أمير الشعراء أحمد شوقى ، الذى استمع إلى عبد الوهاب فى مناسبة عابرة ، فأطربه صوته وأعجب بأدائه وذوقه وخبرته التى تم عما بذل فى سبيلها من كد ومعاناة ، والتى لم يكشف عنها إلا بعد اطمئنانه إلى خاماتها ونسيجها المتأسك .

وكان شوقى يقدم لعبد الوهاب الأغانى باللغة الدارجة حيناً ، وباللغة الفصحى أحياناً فى شعريته به على الزمان ، ثم راح يقدمه إلى الخاصة من أهل ذلك الزمان ، وكانت تجربة لعبد الوهاب ، كانت ترمى إلى معرفة أثره المعروض على قوم كانوا ينصرفون عن كل ما هو شعبي أو شرقى أو وطنى ، لكنه استطاع بغنائه ولون تلحينه البارع الطريف ، أن يززع ما كانوا يتمسكون به وراحوا يستمعون إليه فى شغف واستحسان .

وقد نظم شوقى لعبد الوهاب ثروة فى عالم الغناء والشعر ، فذكر منها على سبيل المثال : بلبل حيران ، فى الليل لما خلى ، الليل بدموعه جانى ، الى يحب الجمال ، علموه كيف يحفوا فجفا ، يا ناعماً رقدت جفونه ، قولوا له روحى فداه ، ثم يا جارة الوادى التى نذكر فيما يلى قصتها .

كان أحمد شوقى ، يؤثر مصاييف لبنان على مصاييف أوربا لاستقرار الجوف فيها

ولجمال مناظرها ولوجوده في بيئة شرقية عربية ، يطيب له مناخها .

وهو القائل في لبنان :

لبنان والخلد اختراع الله لم يرسم بأزين منها ملكوته
هو ذروة في الحسن غير مردمة وذرا البراعة والحجا بيروته

وكان مصيف زحلة ، دون سائر مصايف الجبل ، مستأثراً بحب وإعجاب

وحنين أمير الشعراء .

وقد رأت بلدية زحلة عام ١٩٢٧ أن تهديه قطعة أرض يقيم عليها داراً
لسكنائه ، تطل على نهر (البردوني) ، الذي يشق زحلة مختالاً بين رياضها
ومجانينها ، إلى أن يصبح عند قدميها جدولاً ، عذب الخريز ، شجى النغم ،
تنتشر على جوانبه المرحاة اللعوب ، متديبات ومسارح ومطاعم ، لا تقع العين
فيها إلا على ضاحك أو شارب أو طاعم أو راقص أو عازف أو شاد . وقد قامت
على مشارف وادي زحلة ، عن يمين وعن يسار ، هضبتا صنين والحرمون ،
يضمّان زحلة في حب ورفق وحنان ، حرصاً عليها واعتزازاً بها مثلما يعتزّ أب بابنة
حسنة غالية .

وقد رأى أمير الشعراء ، إعراباً منه على شكره على لفظة بلدية زحلة ، إلى أن
يخلد هذا الحادث بشعره الذي يرن في أذن الزمان ، وأن يقوم الموسيقار
عبد الوهاب بتلحينه ، ليكتب لهذه القصيدة الخلود ، مثلما كتب الخلود لأغنية
قبلها منذ أكثر من مائتي عام في بلدة (أفينيون) في فرنسا ، وهي التي كانت في
فترة من الفترات مركزاً للبابوية . واسم هذه الأغنية :

Sur Le Font a'ervinion

(فوق كوبرى أفينيون) . ما تزال هذه الأغنية يتغنى بها الشبان والصبايا حتى وقتنا الحالى .

وقد صح ما توقعه أمير الشعراء لأغنية (يا جارة الوادى) فما أن شدا بها عبد الوهاب ، وطبعت على أسطوانات فى عهدهما ثم على كاستات فيما بعد ذلك ، حتى أصبحت القصيدة على لسان كل عربى وخاصة أهالى زحلة وقد أسمى أمير الشعراء القصيدة (آية الزمان) . وكان مطلعها :

شيعت أحلامى بقلب باك ولحت من طرق الملاح شباكى
ثم تجيء الأبيات التى لحنها عبد الوهاب :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك
ويقول فى ختامها وهى أبيات لم تغن ولكنه يعبر فيها عن امتنانه لبلدية زحلة . كما يفصح فيها عن قدر زحلة فى قلبه :

إن تكرمى يا زحل شعرى إننى أنكرت كل قصيدة إلاك
أنب الخيال بديعه وغريبه الله صاغك والزمان رواك

* * *

واستكمالا للحديث عن شعر شوقى الشاعر الإنسان ، والتنقل فى بستان نظمه ، والتنعم بجمال ما به من ورود وأزهار ، تبعث الأرج والشذى الذى يعطر الأرجاء وينعش النفوس الغافلة الهيامنة ، أقول استكمالاً لكل ذلك ، أى أن

أطوف بطرف من عادات هذا الإنسان ، الفريد في تكوينه والمعجز في نظمه
وبيانه .

كان شوقى لا يرى صيفاً أو شتاءً إلا مكتسباً بدلته كاملة بصديرها . وكان
لا يستعمل (الكرافات) أبداً ، ويستبدله (بالبايون) الجاهز الربطة ، حتى
لا يحتاج إلى أن يقوم بالتأكد من وجوده في مكانه الصحيح وهذه مهمة كانت
تضايق مزاجه الرقيق .

وكان شوقى رحمه الله ، قليل الأصدقاء ، كثير المعارف ، وهو يتقى
أصدقاءه مثلما يتقى الصائغ الماهر بديع الجواهر التى يستكمل بها صنعته ، وما بين
يديه من تحفة غالية .

وقد بما قال شاعر :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت فى عين من لم يجرب

وكان لا يرتاح إلا لصحبة محدودة العدد ، خفيفة الظل ، رفيعة الذوق ،
يأنس لها ويستطيب وجوده بينها ، وإن كان هو معهم ، الحاضر الغائب . من
هؤلاء المقربين إليه ، المرحومين محمد البابلي والدكتور محجوب ثابت والشيخ
طهارة الذى كان إماماً للسفارة المصرية فى واشنطن آنذاك ، وحسين شيرين
بك والأستاذ محمد الجزيرى ، وقليل غيرهم ممن لم تعهم الذاكرة ، ومن
الأحياء ، أطل الله بقاءهم الأستاذين أحمد رامى ومحمد عبد الوهاب .
وكان يرتاد الأماكن التى اعتاد ارتيادها ، دون ما نظر إلى من يرتادها ، فهو

محب للمكان ، غير آبه بالسكان الذين كان يجلس معهم وهو عنهم فى شأن شعره وأوبراته وغنائياته .

وكان لا ينام إلا فى ضوء شمعة أو (مسرجة) . ولا يطبق نور الكهرباء . وكان كثيراً ما يركب الترام المفتوح الجوانب وفى آخر مقاعد العربى الأخيرة . أما فى السينما فكان يجلس فى الصف الأول من الصالة بسبب ضعف إبصاره . وعندما كان يعود من سهرته ليلاً إلى (كرمة ابن هانى) فى المطرية ثم فى الجزيرة ، كان يجد خادمه الخاص ، (الشماشرجى) فى انتظاره ليقدم له عشاءً خفيفاً . ثم يتركه ليقرا أو يستكمل نظم قصيدة أو مسرحية أو أوبريت ، أو أغنية .

ومما هو مأثور عن بيرم التونسى أن أمير الشعراء عندما دخل عالم الأغنية ، خاف بيرم التونسى هذا الفارس الذى لا يجارى ، وأنه سيسود على ناظمى هذا اللون ، فقال يخاطبه بقوله :

يا أمير الشعراء - غيرك فى الزجل يبقى أميرك
أما شوقى الرقيق ، الإنسان ، فقد كان يقول عن نظم بيرم لأزجاله وأغانيه باللغة الدارجة .

إنى أخاف على اللغة العربىة من عامية بيرم البليغة .
يتوقف المحاضر قليلاً ليقول وهو يستعد للانصراف :
أشكر لكم حسن إصغائكم ، تصفيق من الحضور وهم يهمون
بالانصراف .

المحتويات

صفحة

شوق وعالمه الشعري	٣
الباب الأول : شوق الإنسان في مديحه وردائه	٥٩
الباب الثاني : شوق الإنسان في شواخه الدينية	٦٥
الباب الثالث : شوق الإنسان في مواكبته الأحداث الكبرى	٧٥
الباب الرابع : شوق الإنسان في الوصف	٨١
الباب الخامس : شوق الإنسان في وطنياته	٨٩
الباب السادس : إنسانية شوق تتغلغل في كل ما يقع عليه بصره أو يعتز به	٩٧
الباب السابع : شوق الشاعر الإنسان في وصفه ومدائحه ومراثيه	١٠٥
الباب الثامن : إنسانية شوق الفنان في مسرحياته وغنائياته ..	١١١

هذا الكتاب

يطوف المؤلف خلال عالم شوقى الشعرى .. فيأخذ الجانب
الإنسانى من هذا العالم .. ويعرض لشواحه الدينية ومواكبه
أحداث عصره ، وقصائده فى الوصف والوطنية ومسرحياته
وغنائياته .

والمؤلف يؤكد فى كل ما يكتب إنسانية أحمد شوقى فى تناوله
كل ما يعبر عنه فى أشعاره المختلفة .. فأضاف بذلك حساً خاصاً
إلى مقدرة شوقى الفنية ..